# الباب الثاني

## الحرف والصنائع الخاصة

الفصل الأول: الحرف والصنائع الضرورية البسيطة

الفصل الثاني: الحرف والصنائع الكمالية المركبة

مارسها الحرفيون والصناع بالمدينة خارج التبعية للدولة انتمى معظمهم إلى طوائف مكنت من تنظيم العمل الحرفي بتنسيق مع المحتسب[1].

وتم تصنيف هذه الصناعات والحرف إلى ضرورية بسيطة وكمالية مركبة، تتميز الأولى ببساطة أدواتها وأساليبها وتحقيقها لحاجيات السكان الأساسية داخل وخارج المدينة، من أدوات وآلات فلاحية ومصنوعات غذائية، وأثواب وملابس ومنتوجات أخرى، وتتصف الثانية بدقة تقنياتها وأدواتها وارتفاع قيمة منتوجاتها. ولهذا استجابت لطلبات الفئات الميسورة من الغذاء واللباس والبناء والمصنوعات المعدنية والجلدية وغير ذلك.

وتركزت الحرف الخاصة في عدوة القرويين، بينما قلت في كل من عدوة الأندلس وفاس الجديد.

---

(١) ترأس مؤسسة الحسبة: وهي إحدى الخطط التي كان لها دور مراقبة الأعمال الحرفية المنجزة من طرف أرباب الصنائع. و استمدت مشروعيتها من مبدأ «الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر» حيث قال فيها أبو الحسن الماوردي بأنها: «أمر بالمعروف إذا ظهر تركه و نهي عن المنكر إذا ظهر فعله» (النويري: نهاية الأرب، ص ٢٩١). و المحتسب هو من كان يتولى خطة الحسبة ، خضع تعيينه لعدة شروط أجملها ابن رضوان في «العدالة و النزاهة و معرفة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و معرفة طُرَف من الحساب لاختيار قيم المبيعات، و نسب الأسعار و شبه ذلك، و التيقظ لإقامة الموازين بالقسط، و الشعور بغش المتحيلين و الصرامة في الحكم، و عدم الالتفات إلى الشفاعات، لأن نظره منوط بحقوق عامة المسلمين، وإسقاط حق الجماعة لإرضاء واحد أو اثنين ليس بصواب» (الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص٣٢٧. و توَفر هذه الشروط في المحتسب يؤهله للقيام بمهامه الكامنة في «النظر و الحكم فيما يتعلق بالغش و التدليس في المعايش و غيرها في المكاييل و الموازين » ابن خلدون: المقدمة، ص٢٢٥)

# الفصل الأول

## الحرف والصنائع الضرورية البسيطة

المبحث الأول: الحرف والصنائع الفلاحية

المبحث الثاني: حرف الغذاء

المبحث الثالث: صناعة النسيج والملبوسات

المبحث الرابع: حرف الخدمات

المبحث الخامس: حرف البناء والفخار وتحويل الخشب والجلد

# الفصل الأول

## الحرف والصنائع الضرورية البسيطة

ذكر ابن خلدون عن هذه الحرف والصنائع أنها حققت ضرورات المعاش، ووصف أنواعها بأنها متقدمة في التعليم، إذ يتمكن متعلموها من إتقانها في ظرف وجيز بحكم البساطة التي ميزت تقنياتها[١].

وحققت الصناعات البسيطة ضرورات البادية والمدينة. ومن فروعها صنائع فلاحية[٢]،مكنت من صنع أدوات زراعية وما يحتاج إليه الفلاحون في أنشطتهم.

والفرع الثاني منها مثلته الحرف التي كانت تُحَصِّل الأقوات التي يتغذى بها سكان البادية والمدينة، نُعتت بحرف الغذاء[٣]، كونتها أعمال الطحن والعجن والطبخ وعصر الزيت...

أما الفرع الثالث فمثلته صناعة الملبوسات[٤]، وما أنتجته من أثواب وملابس يغلب عليها طابع البساطة واتقاء الحر والبرد بها.

والفرع الرابع سيتم فيه تناول الحرف الخدماتية تميزت فيها حرفتا الحمالين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص: ٤٠٠.

(٢) نفسه، ص: ٤٢.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص: ٣٩٨.

والدلالين، كما شملت هذه الحرف الحجامة باعتبارها خدمة لصحة الإنسان، والبيطرة التي قومت الدواب ودفعت عنها الأمراض.

أما الفرع الخامس والأخير سيشمل أعمال البناء التي تدخل فيها صناعة الفخار، والصناعات الخشبية أهمها النجارة وبعض الصناعات الجلدية البسيطة.

# المبحث الأول

## الحرف والصنائع الفلاحية

تجسد أصناف هذه الحرف والصنائع الارتباط الوثيق بين مدينة فاس والبادية المحيطة بها. حيث كانت الخدمات – في الفترة المدروسة- متبادلة بين مدينة فاس والبادية المحيطة بها، إذ ضمنت الأولى استمرارها بفضل تزويد الثانية لها بحاجياتها، في وقت كانت المدينة المذكورة تمد سكان محيطها بمعظم حاجياتهم[1].

وبالنظر إلى أصناف الحرف الفلاحية بفاس وخصائص كل صنف منها ، فقد اكتسى بعضها أهمية من حيث كميات المواد المُحولة ونوعية المصنوعات التي ينتجها مثلما حصل عند الحدادين والعوادين مقارنة مع الأصناف الأخرى التي سيتم التطرق لها.

وخدمة الحرفيين للأنشطة الفلاحية بصنعهم للأدوات المستعملة فيها لا يعني أنهم لا يصنعون أشياء خاصة بالأنشطة الحضرية ولو أن عددها محدودا أو قليلا.

وفيما يلي أهم الحرف الحرف الفلاحية، حيث سيتم التعريف بها بالتحدث عن المواد المستخدمة فيها ، والأدوات والتقنيات المعتمدة عند ممارسيها، وأماكن ممارستها وأنواع المصنوعات وغير ذلك .

### ١- الحـدادة:

هي معالجة مادة الحديد وتصنيعها وتشكيلها قصد الانتفاع بها. ويدعى

(١) مولاي هاشم العلوي القاسمي: مقدمة التقاط الدرر، ص ص: ٨١- ٨٢.

صاحب هذه الحرفة بالحداد[١]، كما يعرف أيضا بالقَيِّن الذي يجمع على قيون[٢]. وقد ورد ذكر الحديد في القرآن الكريم، إذ قال الله عز وجل: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [٣]، وفي هذا القول الرباني إشارة إلى قوة هذه المادة وما تحققه للناس من منافع وحاجيات.

تدخل الحدادة في نطاق الحرف المعاشية[٤] البسيطة، وتلبي مصنوعاتها الحاجيات الضرورية التي لا غنى لسكان البوادي عنها[٥]، الذين كانوا يقتنون الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد من فاس أو الأسواق المحيطة بها. كما لبى الحدادون بمصنوعاتهم بعض حاجيات سكان المدينة أيضا.

**-الأدوات والتقنيات:**

اعتمد الحدادون في حرفتهم على مجموعة من الأدوات أهمها الكير أو الزق المصنوع من الجلد أو المبني من تراب[٦]. ولهذه الأداة أهميتها في الحرفة إذ توقد وتتوهج بواسطتها النار عن طريق النفخ بها، مما يتيح للحداد إمكانية تطويع المادة التي يشتغل عليها سواء كانت قطعا حديدية أو غيرها. عن طريق وضعها في النار وقبضها باللقاط، ثم إخراجها ووضعها فوق زبرة الحديد، ليتم الضرب عليها بالمطرقة الثقيلة، وأحيانا يضرب عليها الحداد ومساعده بمطرقتين في آن واحد.

---

(١) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٦٩.

(٢) الخزاعي التلمساني تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٨.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٥) نفسه، ص: ١٥٣.

(٦) الخزاعي التلمساني: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ العمري: المرجع السابق، ص: ٢٢٧.

واستعمل الحدادون أدوات وتقنيات أخرى تتم بها عمليات تصفية الحديد الخام وسبكه[١] وتخليصه تم مده في إطارات وقوالب معدة لذلك، مما يمكنهم من صناعة صفائح الحديد المتنوعة السمك والأبعاد، والمسامير وغيرها. واحتاج الحدادون في هذه الأعمال إلى أدوات وآليات ومواد كالمطارق والأمقاص واللقاقيط أو الكماشات والآنيات... فضلا عن النار والماء[٢].

- المصنوعـات:

اختص الحدادون في عمل الصفائح والمسامير التي توضع في أرجل أو سنابك الخيل والدواب[٣]. كما صنعوا الأدوات الزراعية التي يحتاج إليها الفلاحون مثل السكك التي توضع في المحاريث الخشبية كي تساعدهم في شق الأرض وخدمتها، والقطاطيع والمناجل التي تفيد في حصاد الزرع[٤]، والفؤوس التي يعتمد عليها العاملون في البناء وحفر الآبار والقبور وغيرها.

وقدم الحدادون مصنوعات أخرى لأهل البادية والمدينة مثل شبابيك النوافذ والأقفال الحديدية، ومقارع الأبواب والصفائح، والمفاتيح التي تغشى وتغلق بها الصناديق، وهذه الأخيرة –أي الصناديق– أيضا صنعت من حديد[٥].

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠..

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢

(٤) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ١١٩٤٢، ص: ٤٣٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٢٢٠.

(٥) لوتورنو: المرجع السابق، ص ص: ٩١، ١٣٢؛ العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية،أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، ص: ٩٧.

وشهدت فاس وغيرها من المناطق استعمال سلاسل حديدية اختلفت أحجامها بعضها من الحجم الكبير من قبيل تلك التي كانت توضع في أبواب الأسواق الكبرى بالمدينة[١]، لم تتم الإشارة إلى صنعها، لكن تقنيات تحويل الحديد ترجح صناعة هذه السلاسل بفاس سواء عن طريق الحدادين أو بإسهام من حرفيين ذوو تخصصات أخرى. ولعل الحدادين اعتمدوا على حرفيين آخرين قدموا لهم مصنوعات حديدية يتممون صنعها مثل الصفائح والمقارع والسلاسل التي كانت تفرغ في إطارات خاصة قبل أن يتم الاشتغال عليها.

إن أعمال سبك الحديد وفرغه ومعالجته بالصنعة بعد تصلبه وإخراجه من الإطارات، مَكَّنت من صناعة أشياء كان الحرفيون والتجار والسكان في حاجة إليها كالمطارق واللقاقيط والصنجات الحديدية والموازين، لكنها تبقى قليلة الأهمية مقارنة مع المصنوعات الحديدية الفلاحية.

**-أماكن ممارسة الحدادة:**

كانت المنطقة القريبة من الوادي الجاري بين العدوتين من جهة القرويين[٢] مؤهلة لممارسة الحدادين لحرفتهم ، باعتبار هذه المنطقة تتيح سهولة الحصول على الماء من المجرى الذي يحتاجونه في تبريد الأدوات الحديدية التي تعالج بالنار، ولقربها من السمارين المختصين في تصفيح أرجل البهائم والدواب بالمكان الذي عُرِف بالبرزخ -ينعت حاليا بالرصيف-، حيث المدخل إلى قلب المدينة عبر باب سيدي العواد.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول كربخال : إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية مجموعة من الأساتذة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م ، ج٢، ص: ١٤٨.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

ولازال مسجدا هناك يعرف بجامع السمارين[١]. فالعلاقة إذن وطيدة بين الحدادين والسمارين من خلال تزود الأخيرين بالمسامير والصفائح من الأولين. وإضافة إلى القرب من الماء والسمارين هناك عامل ثالث برر تواجد الحدادين بالمنطقة القريبة من الوادي هو تعاملهم مع صانعي بعض الأنواع من الأسلحة التقليدية المصنعة من مادة الحديد[٢]، لا يستبعد تزويد الحدادين لهم ببعض حاجياتهم من هذه المادة.

أما الحرفيون المتخصصون في سبك وفرغ الحديد، فمحيط الوادي كان مؤهلا أيضا لاحتضان حرفتهم، بحكم حاجتهم إلى فضاء يتيح لهم استخدام الوسائل التي يعتمدونها في صنعتهم وفي مقدمتها الماء والنار. ومكانهم لا يحتمل أن يكون بعيدا عن مكان الحدادين للعلاقة المتواصلة بينهما.

### ٢- عمل العـود:

يقصد بالعود بعض أنواع الخشب الذي اشتغل بصنعته حرفيون كانوا يدعون بالعوادين. وقد صنع هؤلاء الآلات الخشبية الكبرى كعرائش العجلات والمحاريث ودواليب الطواحين وغير ذلك [٣]. ولهذا فحرفة العوادين خدمت الفلاحين في البادية العاجزة عن توفير حاجياتها، كما خدمت أيضا بعض الأعمال التجارية والصناعية بالمدينة.

وتقنيات حرفة العوادين بسيطة مقارنة مع النجارة ، إذ كان تحويل عود بعض الأنواع من الأشجار بأدوات ومهارات حرفية تمثلت أساسا في نجر الأعواد التي

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، نفس الصفحة.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة.

تصنع منها الآلات التي ذكرت آنفا، لذلك لم تتطلب هذه الحرفة الأنواع الجيدة من الخشب. كما أن تقنيات هذه الصنعة قلَّ فيها التكليف. فهي لا تستدعي إتماما صناعيا أو صقلا للخشب أو تلميعا له مثلما كان الأمر عليه في بعض الصناعات الخشبية الأخرى.

وقد اجتمعت دكاكين العوادين بمركز المدينة غير بعيد عن مكان ممارسة الحدادة، وهو الواقع خلف الصباغين من جهة عدوة القرويين. وباب سيدي العواد الذي لا زال قائما في الرصيف شاهدا على أنه مؤدي إلى دكاكين العوادين التي توجد في ساحة هناك تعرف بالاسم نفسه (العوادون) في الوقت الحالي.

**٣- صناعة الغرابيل:**

يدعى المحترفون بها بالغرابليين أو التيالين. وقد مارسوا صناعة الغرابيل التي هي أداة تمكن من غربلة الحبوب والدقيق.

لقد اتسمت هذه الصنعة بتقنيات نسج التيل من خيوط الكتان أو ما شابهها، وهي متنوعة في دقة الخيوط وتقاربها. وكان الصانعون لهذه التِّيَل يقومون بوضع ألواح خشبية دائرية على أطرافها تساعد بعد تطريقها بالمسامير في إتمام صنعة الغرابيل. وقد تصنع الغرابيل ذات أحجام كبيرة وأشكال مربعة، إذا كان الأمر يتطلب غربلة كميات كبرى من الزرع أو أنواع الحبوب الأخرى. ولذلك فالتيالون خدموا بصنعتهم الفلاحين من جهة وربات البيوت في البوادي والمدن من جهة أخرى.

وتواجدت دكاكين التيالين على الزقاق المؤدي إلى باب الشريعة فوق عين علو[1]

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٦.

وأسفل الشرابليين ولا زالت هذه السوق تعرف برأس التيالين[١].

٤- صناعة الظروف:

الظروف هي الأكياس التي كانت تخصص لخزن الدقيق والقمح. وقد اختص في عملها حرفيون مارسوا صنعتهم برأس التيالين -المذكورة آنفا-، واشتغلوا في ثلاثين دكانا هناك[٢]. وصناعة الظروف والغرابيل متداخلتين إلى الحد الذي جعلهما مجتمعتين في حي حرفي واحد، حيث يوجه منتوجهما بصفة أساسية للفلاحين في البوادي[٣]، وهو ما يفسر تواجدهم على طريق يعبره الداخلون إلى المدينة والخارجون منها. ولعل مادتي الكتان والقنب كانتا أساسيتين في نسج الظروف ثم خياطتها قبل عرضها للبيع، وخزن الدقيق يتطلب نسجا دقيقا تعد خيوط الكتان مناسبة له، أما خزن القمح أو الحبوب الأخرى فيستدعي نسجا أقل دقة وظروفا خشنة تنسجم صناعتها مع استعمال خيوط القنب كمادة فيها.

٥- صناعة السلال:

اعتمد صانعوا السلال على مادة القصب التي حولوا منها أشياء أخرى مماثلة كأقفاص الدجاج والطيور وغيرها. وقد توفرت في حدائق وبساتين المدينة وضفاف الأودية العابرة محيطها ومجالها مادة القصب التي تدخل في صناعة السلال وما شابهها.

---

(١) عين علو أو عين علون هي قسم من الطريق الواقعة بين العطارين وباب الشريعة، توجد أسفل رأس التيالين وأعلى عقبة الجزارين.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٨.

(٣) لوتورنو: المرجع السابق، نفس الصفحة.

وتمثلت التقنيات الحرفية لدى السلالين في اعتمادهم على المهارات اليدوية، حيث كانوا يقطعون القصب، ثم يعدونه ويقطعونه بالسكاكين، إذ تقسم كل قصبة عموديا إلى نصفين أو أكثر، ثم ينسجون قطع القصب بطريقة يدوية تحولها إلى سلال مختلفة الأحجام، معظمها من حجم كبير تخصص لاحتواء الزرع [١] وغيره من الحبوب كالشعير والذرة، ويتصف شكل السلال بكونه أسطوانيا يتقلص حجمه في الأعلى بالطريقة التي تتيح حفظ الحبوب. وقد كان الفلاحون عند شرائهم للسلال يطلونها من واجهتها الخارجة بالطين المخلوط بالتبن والماء حتى تحفظ الحبوب المخزونة داخلها.

أما صناعة الأقفاص فيبقى القصب فيها غير مفصول، أي على الشكل الذي يوجد عليه في الأصل، والذي يتم تهييئه ثم يقسم إلى قطع حسب الطول المطلوب، ثم تربط هذه القطع بالشكل الذي يحولها إلى قفص معد لإيواء الدجاج أو الطير ولا يمكنها الخروج منه. ويتيح للإنسان النظر إلى ما بداخل القفص وتقديم الطعام والماء له.

وقد ذكر مارمول أن الأقفاص صُنعت في ساحة معروفة بقبيب النقاش. وهي التي تدعى حاليا قبيب الناقص قريبا من العشابين،كما أشار أيضا إلى أن مكان صنع الأقفاص كانت تتواجد به سقاية قربها الحرفة المذكورة[٢]. ورغم عدم الإشارة إلى مكان صناعة السلال، فالمرجح أنه كان لا يبعد عن مكان صناعة الأقفاص، للتداخل في تقنياتهما ولقرب المكان المعلوم من رحبة الزرع[٣] التي احتضنت باعة

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٢.

(٣) ورد عند ابن عيشون أن رحبة الزرع كانت تتواجد بالحفارين أسفل سيدي عبد الله المكي. هذا الكلام ذكره الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس: سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس ممن أقبر من

الزرع وزبناءهم، وهم من أقبل على اقتناء السلال.

ولذلك كانت توُجه الأقفاص المصنوعة بشكل خاص لمربي الدجاج وهواة الطيور بالمدينة. أما السلال فكانت تخدم الفلاحين في البادية. ويمكن للحرفي الواحد صناعة الأقفاص والسلال وأشياء أخرى من القصب.

٦- صناعة الشرائط:

دخلت مادة القنب أساسا في صناعة الشرائط. وكان الحرفيون المختصون فيها يقومون بتجديل وغزل وفتل الألياف المكونة للشرائط[١]. وقد مارسوا هذه الحرفة في دكاكينهم التي تموضعت في مكان عرف باسمهم «الشراطين» الواقع بين باب السلسلة وملتقى الطرق المؤدية إلى الشماعين والبراطليين والقطانين. وسوَّقُوا في دكاكينهم الحبال والشرائط للزبناء[٢].

واستعمل الشراطون تقنيات حرفية تمثلت في تنظيف وتنقية ألياف القنب مما يكون عالقا بها، ثم غزلها بالتقنيات البسيطة التي اختصت فيها النساء، ثم فتلها وتجديلها حتى تصبح عبارة عن حبال تختلف أنواعها وأحجامها.

ويبدو أن الشراطين صنعوا أيضا حبالا وشرائط من الدوم والحلفاء والكتان بتقنيات شبيهة بتلك التي اعتمدت في تحويل مادة القنب، ولا تختلف معها إلا في

---

العلماء والصلحاء بفاس، ج١، ص ص: ١٩٠-١٩١، طبعة حجرية، نسخة مصورة بمكتبة آل سعود بالبيضاء تحت رقم: ٠٤٦ ج مكرر، ولعلها- أي رحبة الزرع -تقع بالداخل إلى الزقاق المعروف باسمه الذي يحتضن ضريحه من النواعريين.

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٥؛ نفسه: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٤.

(٢) Massignon, L : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 231.

خصوصيات بعض المواد التي تطلبت تشميسها وتبليلها بالمياه، وهو الأمر الذي يخص مادتي الدوم والحلفاء فقط.

لقد استعملت الحبال والشرائط بمختلف أنواعها في أغراض منزلية كحمل الماء من الآبار، وفي أغراض حرفية كربط الأمتعة ونقلها من طرف الحمالين، فضلا عن الأغراض الفلاحية لدى أهل البادية.

٧- عمل الحلفاء:

تخصص في هذا العمل الحلفاويون الذين صنعوا السلال والقِفَف من مادة الحلفاء والدوم. لذلك نسبت حرفتهم إلى مادة الحلفاء. وتمت ممارسة هذه الحرفة بحي الصفارين في قبلة جامع القرويين [١] بجوار مدرسة الصفارين التي نعتت أيضا بمدرسة الحلفاويين.

وكانت المهارات والتقنيات اليدوية أساسية في صناعة سلال الحلفاء [٢]. فإضافة إلى المراحل الأولية في الحرفة التي تكمن في تهيئ المادة الأولية حتى تصبح جاهزة للاشتغال عليها، كان الحلفاويون ينسجون خيوط الحلفاء أو خوص الدوم بأيديهم فيحولونها بذلك إلى ظفائر، ثم يعملون على خياطتها باستعمال المخيط وأشرطة الدوم المفتولة، ويصنعون لكل سلة أو قفة مقبضين في الأعلى يمكنان من حملها فارغة أو بما تحتويه من بضائع وأمتعة أو مواد كانت توضع فيها.

ولعل الفرق بين الحلفاء والدوم كمادتين معتمدين عند الحلفاويين هو أن الثانية أصل للأولى. إذ لا يتحول الدوم إلى حلفاء إلا بعد تقطيع فصائله إلى خيوط رقيقة

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٩.

تنعت بالحلفاء.

واختلفت أحجام السلال أو القفف التي صنعها الحلفاويون. كما ساعدتهم مهاراتهم الحرفية في صنع أشياء أخرى مماثلة كَعُقُل الدواب، التي توضع في أرجلها، وقبعات من التبن أو سعف النخل [١].

٨- عمل البرادع:

قام البرادعيون بعمل البرادع الخاصة للدواب المتكونة من الحمير والبغال والخيول. لذلك كان شكل وحجم البردعة يتفاوت حسب نوع الدابة التي ستحملها. وقد صنعت البرادع ذات الحجم الصغير من مادة الدوم المظفور والمخيط الذي يحْشى بالتبن، ثم تحكم البردعة بعد ملئها بالتبن بالخياطة، وتوضع لها أحزمة ظفر في مؤخرتها، وعادة ما يخصص هذا النوع من البرادع الصغيرة التي عادة ما تخصص للحمير وأحيانا للبغال. أما بالنسبة للبرادع الكبرى فتصنع للبهائم من بغال وخيول من نسيج القنب المتوفر عند التيالين، حيث يقوم البرادعي بخياطته، ثم إدخال التبن فيه، وخياطة وصناعة أحزمة له، وصناعة ظفرين يوضعان في مقدمة ومؤخرة البردعة[٢].

وبالإضافة إلى عمل البرادع، تخصص الممارسون لهذه الصنعة في إصلاح ما تضرر منها.

وقد تنوع زبناء البرادعيين فتكونوا من الحمالين الكثيري العدد، إضافة إلى

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) الوزان المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ الطويل، محمد حجاج: السرج، معلمة المغرب، م ١٥، ص ص: ٤٩٥٩-٤٩٦٠.

الفلاحين المتواجدين بالبوادي، وسكان المدن الذين كانوا بدورهم لا يستغنون عن استعمال الدواب كوسيلة رئيسية للنقل في الفترة الزمنية موضوع البحث.

تلك هي الأصناف الحرفية التي كانت مصنوعاتها موجهة للنشاط الفلاحي بصفة أساسية، وللأنشطة اليدوية المنزلية أيضا التي كانت في حاجة إلى مصنوعات حرفيي فاس. فالبادية المغربية في المرحلة الزمنية المدروسة كانت مجالا لممارسة الزراعة والرعي، وتعتمد على المدن القريبة منها للتزود بالمنتوجات الحرفية

# المبحث الثاني

## حرف الغذاء

تتمثل أهمية حرف الغذاء في تحصيل الأقوات التي يتغذى بها الإنسان. وتأتي على رأس هذه الحرف تلك التي تعالج الزرع بطحنه وعجنه وطبخه [١]، تليها حرف أخرى تمثلت في عصر الزيت من حبوب الزيتون، والجزارة التي توفر اللحوم، إضافة إلى المحترفين بإنتاج الحليب ومشتقاته، وتوفير الحوت والملح وغيرها من المنتوجات الغذائية.

وعادة ما تكون هذه الحرف موجهة لسد حاجيات الناس من المأكولات. أما تقنياتها فكانت بسيطة تغيب معها مظاهر الترف وما يصحب ذلك من التأنق والاستجادة في الصنع، إذ أن حصول هذه المظاهر يحولها إلى حرف تهتم بالكماليات.

### ١- طحن الحبوب:

كان القمح أو الزرع، ولا يزال، مادة غذائية رئيسية لدى سكان بلاد المغرب. والفترة المرينية الوطاسية شاهدة على تغذية الناس بأنواع أخرى من الحبوب مثل الشعير.

ولأهمية الحبوب في التغذية، حرص حكام الدولة على تأمين حاجيات سكان مدينة فاس ومحيطها منها كغيرها من المدن والمناطق، إذ كانت تخزن في المطامير التي تموقعت بقرب باب الشريعة [٢] ثم بفاس الجديد بعد تحول السلطة إليه. كما وفر

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٢.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١.

الفلاحون والتجار الحبوب ببيعها في رحبة الزرع التي وجدت بحي الحفارين أسفل المدينة العتيقة[١].

ومثلت المجاري المائية وسيلة لإقامة المطاحن بنقط متميزة بقوة الجريان فيها. وقد تأسست أرحاء الماء الطاحنة للحب منذ تأسيس المدينة واستمر إنشاؤها مواكبة للتطور الديمغرافي الذي شهدته المدينة، وهذا ما جعل ابن الخطيب في إطار وصفه لفاس: يقول بأن «أحجارها طاحنة»[٢].

لقد أحصى الوزان أربعمائة طاحونة كل واحدة تحتوي على عدة أرحاء، وأضاف بأن عدد الأرحية وصل إلى ألف رحى[٣]. لذلك فمعدل الأرحية بكل طاحونة تراوح بين اثنين وثلاثة. والأرحى هي الحجر الذي يطحن الزرع أو غيره من الحب تحصل حركته بالماء، أما الطاحونة فهي البناية التي تضم الأرحية.

واشتغل بالطواحين عدد هائل من العمال وصل إلى عشرين ألفا[٤]. وقد قاموا داخلها بطحن الحبوب للزبناء من أرباب المنازل، وللدقاقين المتخصصين في إنتاج وتسويق الدقيق بالمدينة، وقد امتلك بعض هؤلاء (الدقاقون) طواحين لهذا الغرض[٥].

وقدَّم أرباب المطاحن خدمة الطحن للزبناء الذين يحملون الحب في أكياس خاصة بذلك، مقابل مال أو دقيق بمبالغ أو أقساط محددة.

---

(١) الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس: سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس، ج١، ص ص: ١٩٠-١٩١.

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٢.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٣٣.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣.

(٥) نفسه، ص: ١٨٧.

وأسهمت عمليات طحن الحبوب في اشتغال بعض العمال بحمل الدقيق إلى أرباب المنازل من الأرحى[١]. ولا شك أنهم قبل ذلك كانوا يحملون الحب من المنازل إلى المطاحن مقابل أجر بسيط كان يدفع من طرف أصحاب المنازل أو أرباب المطاحن.

بالإضافة إلى الأرحية التي اشتغلت آليا بالمياه، تم طحن الحبوب داخل المنازل أرحية يدوية مكنت الناس من الحصول على الدقيق اللازم للعيش. إلا أن أهميتها قليلة مقارنة مع أرحية الماء.

وصحبت عمليات الطحن وإنتاج الدقيق ممارسة حرفة جمع «النخالة»، وهي ألياف الحبوب تفصل عن الدقيق بعد غربلته داخل البيوت والمنازل. وقد كان النخالون يتجولون في أرباض المدينة يستبدلون هذه المادة بأشياء مثل المكانس[٢] أوالشطاطيب. ثم يبيعون ما يجمعونه إلى البقارين الذين يستخدمون النخالة علفا لماشيتهم.

٢- عصر الزيوت:

كانت حبوب الزيتون أهم مصدر للحصول على الزيت الذي يستخدم في التغذية إضافة إلى الإنارة وغيرها.

ولذلك الغرض، توفرت فاس على معاصر الزيوت التي تنقل إليها أحمال الزيتون خاصة في موسم جني المحصول -عادة ما توافق مع موسم الحرث المتزامن مع فصلي الشتاء والربيع-. وقد وقعت معاصر الزيتون على أبواب المدينة وخاصة

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص: ٧١.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

بابي عجيسة والفتوح، نظرا لأهمية موقعيهما كمدخلين رئيسيين إلى المدينة من المناطق الغنية بأشجار الزيتون، وقد سبق القول عن غنى المناطق المحيطة بالمدينة من جهتها الشمالية والشمالية الشرقية بحبوب الزيتون[١].

لقد تكونت المعاصر بدورها من أرحاء أو أحجار تطحن الحب، لكنها تدور باستخدام طاقة الدواب. وتميزت هذه الأحجار بأشكالها الدائرية ودوران كل حجر منها على محور عمودي ثابت بحوض من حجر أيضا قاعدته منصوبة على الأرض. كما اشتملت المعاصر أيضا على المكابس التي توضع فيها أكياس من الحلفاء[٢]، تعرف حاليا بالشوامي، يُوضع فيها مسحوق الزيتون قصد عصره من الزيت. بالإضافة إلى السلال التي يوضع فيها حب الزيتون والأواني التي تملأ بالزيت المعصور والمصفى من الماء ومما شابه من أوساخ وغير ذلك.

ومثلت المياه أيضا مادة أساسية معتمدة في عمليات طحن الزيتون وعصره، إذ بها كان يغسل الحب وتنظف الأواني والأدوات المعتمدة في الطحن والعصر واحتواء الزيت.

وقد اشتغل بمعاصر الزيتون عمال تعددت تخصصاتهم، فمنهم من كان يشرف على عملية الطحن، ومنهم من كان يشرف على عملية العصر، فضلا عن العمال الذين يحملون الزيتون ويفرغونه ويخلصون المعاصر من بقاياه ويحملون الزيت.

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٨؛ Massignon:Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, Carte VII, P: 95.

(٢) لوتورنو، المرجع السابق، ص: ١٢٩.

٣- طبخ الخبز:

تمت عمليات طبخ الخبز في الأفران التي كانت تتوزع بالأحياء السكنية للمدينة. ويلفت ابن الخطيب نظر القراء إلى كثرة الخبز الذي يطبخ بالأفران قائلا في حديثه عن مدينة فاس أن «مخابزها شاحنة»[١]. ويرجع هذا الأمر إلى كثرة الأسر القاطنة بدور المدينة، إذ كانت كل أسرة تطبخ خبزها بأقرب فرن بعد أن تتم عملية عجن الدقيق في البيت. وعادة ما كانت توضع علامة على خبز كل أسرة تميزها عن غيرها حتى لا تختلط خبز الزبناء في الأفران[٢]، وقد اختص أرباب بعض الأفران اختصوا في عجن وطبخ الخبز بهدف بيعه في دكاكين خاصة بأحياء المدينة. كما مارس بعض الدقاقين هاته الحرفة أيضا[٣]، لكن المحتسب ألزم كل منتج للخبز بوضع طابع خاص على الخبز التي يعرضها للبيع، وذلك بهدف تجنب الغش والتدليس فيها وتسهيل المراقبة من طرفه.

لم أقف في المصادر التاريخية على عدد الأفران. لكن الإحصاء الذي يتزامن مع الفترة الموحدية قدَّر عدد الأفران في فاس بـ ١١٧٠ فرن[٤]. وهو دليل على أهمية عدد الأفران في الفترة المرينية الوطاسية بالنظر لما شهدته المدينة من تطورات سكانية احتاجت إلى مثل ذلك العدد أو أكثر منه.

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٢.

(٢) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٢٨.

(٣) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٨.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٤٨ الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤.

٤- الجزارة:

احترفها الجزارون الذين كانوا يقومون بذبح وسلخ البهائم، من بقر وغنم وماعز وإبل، وتفصيل لحومها وعرضها للبيع. وقد تموضعت المجزرة وسط المدينة قريبا من النهر[١]، لتوفر المياه التي تحتاجها أعمال الذبح والسلخ. كما يمكن تبرير تواجدها هناك قريبا من مخرج المدينة بالمحافظة على صحة وسلامة السكان والمارة من روائح وفضلات الذبائح التي كانت مياه وادي فاس تنقلها بعيدا.

لقد خضعت المجزرة للمراقبة تجنبا للغش والتدليس. وكانت اللحوم بعد ذبحها وسلخها تنقل إلى دكاكين الجزارين قصد بيعها قريبا من العشابين بعدوة القرويين وبحومة صاريوة[٢] في عدوة الأندلس. وعرفت أسواق الجزارين بيع اللحم إلى جانب الشحم وسقط الذبائح والأكارع والرؤوس. وقد فضل أهل فاس لحم الضأن يليه في الأهمية بالنسبة إليهم لحم البقر ثم لحم الماعز فلحم الجمال الذي بيع لذوي الدخل الضعيف في الأحياء العامة التي يتردد عليها ضعاف القوم.

وقد استعمل الجزارون في حرفتهم مجموعة من الأدوات كالأشياء الحادة مثل السكاكين وغيرها والقطع واللوحات الخشبية التي يفصل ويقطع عليها اللحم، إضافة إلى الموازين والصنجات التي يوزن ويباع بها اللحم[٣].

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ١٢٩-١٣٠.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٤٢.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٧؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٢؛ ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، ص ص: ٢٤-٢٥.

٥- صيد الحوت:

تسمى المحترفون بها بالحواتين الذين اشتغلوا بصيد الحوت وبيعه. وقد زخرت مياه وادي فاس ونهر سبو بأنواع من السمك أهمها الشابل المتميز بكبر حجمه ولذة طعمه والبوري واللبيس والسيناج والبوقة[١].

وكانت الردود[٢] تكترى من طرف الصيادين بإذن من الإمام أو من ينوب عنه، وبموجب ذلك يسمح للمكترين باصطياد أنواع السمك مقابل تأدية قدر معين من المال وصل إلى عشرين ألف مثقال[٣]، وهو ما يعد دليلا على امتلاك أحباس القرويين لردود الوادي التي تقوم بكرائها للصيادين لمدة محددة قصد الانتفاع منها.

واقتصرت أوقات صيد الحوت في الشهور الممتدة بين شهري أكتوبر وأبريل[٤]. ويُفَسَّر ذلك بكون هذه الشهور عادة ما نشطت فيها عمليات الصيد بفعل سقوط الأمطار، وما يصاحب ذلك من ارتفاع منسوب المياه وخروجها عن مجاريها، مما كان مساعدا للصيادين على جمع الحوت واصطياده، إضافة إلى بساطة تقنيات الصيد، وإقبال السكان على تناول الحوت في الشهور الباردة من السنة وماله من دور في

(١) الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص: ٦٠٦؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

(٢) جمع رد، وهي الأماكن المعوجة داخل المياه التي يستقر فيها الحوت وتعرف أيضا بالمضارب والمشارع، يمكن الرجوع إلى: الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، تقديم وإعداد: هاشم العلوي القاسمي، ص: ٣٦٢.

(٣) مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي: مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ١٤.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٢.

تنشيط عمليات الصيد.

لقد عرض الصيادون الكميات المصطادة من الحوت في أسواق المدينة، وبعضها وُجِّه إلى مدينة مكناسة. وكان الحوت يدخل في الوجبات الغذائية للسكان داخل البيوت، وبعضه يطبخ في الدكاكين. وقد بيع الحوت غير المطبوخ في فاس بأثمان رخيصة لكثرة العرض، إذ لم يتجاوز سعر سمكة واحدة من الشابل فلسا واحدا. كما بيع الحوت أيضا بالوزن[١].

### ٦- الملاحـون:

توفرت مادة الملح في الأسواق بفضل عمل الملاحين ، وذلك بإنتاجهم لهذه المادة الغذائية التي تستعمل في تهييء الأطعمة وتحافظ على جودة عدة مواد غذائية. إضافة إلى استعمالاتها الأخرى غير الغذائية.

واعتُبرت الملاَّحَة المتواجدة في محيط المصر[٢] من الجهة الغربية الممتدة على مسافة ثمانية عشر ميلا من مجشر الشاطبي إلى وادي مكس[٣] مصدرا غنيا بالأملاح. وكانت هذه الملاحة تكترى من طرف المحترفين بإنتاج وجلب الملح لمدة تحدد مع الجهة التي تمتلكها وهي مؤسسة الحبس بفاس. لذلك كانت عقود الكراء تتيح للملاحين القيام بجمع كميات الملح ومعالجتها وتنظيفها ثم نقلها إلى فاس قصد بيعها[٤].

---

(١) نفسها، الحميري: المصدر السابق، ص: ١٥٢.

(٢) المصر هو: المدينة أي فاس مادام الحديث عنها في البحث.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١ ص: ١٨٥.

وقد بيع الملح بأسواق فاس بأثمان رخيصة إذ وصل ثمن الحمل درهما واحدا، والحمل هو ما تحمله الدابة على ظهرها، وقدَّرَه ابن أبي زرع بعشرة أصوع[١]. لكن أسعار الملح كانت ترتفع كلما قلت كمياتها وازداد الطلب عليها[٢]. وكانت دكاكين تتواجد بوسط المدينة قريبا من مجمع الحمالين متخصصة في بيع الملح[٣].

٧- عمل اللبن:

اشتغل بهذه الحرفة اللبانون الذين تخصصوا في توفير الحليب والألبان بدكاكينهم التي تموضعت بعدوة القرويين قريبا من القطانين[٤]. وقد تزودوا بالحليب واللبن من البقارين المنتجين لهاتين المادتين. وكانت عمليات نقل هاتين المادتين إلى دكاكين اللبانين تتم في دنان خشبية مطوقة بالحديد ضيقة في فمها وعريضة في قعرها. وتمكَّن اللبانون بفضل تلك العمليات من القيام بتهييئ وبيع اللبن الطري والحامض والرائب في محلاتهم[٥]. حيث كانت حرفتهم لا تتمثل فقط في البيع، بل في تحويل الحليب إلى رائب أو لبن أيضا. كما يبيعون الزبد الذي يستخلصونه من الحليب إلى السمانين[٦] بالمدينة.

واحتاجت هذه الحرفة لمهارة يدوية بسيطة ولآنيات يوضع فيها الحليب ومشتقاته، ويمخض فيها الرائب عند تحويله إلى لبن. وعادة ما كانت أواني الفخار أساسية في ذلك. أما عمليات البيع فكانت تتم في الآنيات التي يحملها الزبناء.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٣٥.

(٢) نفسه.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

(٥) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٥.

(٦) نفسه.

٨- عمل السمن:

السمن مادة غذائية يتم تحويلها من الزبد عن طريق تمليحه. ونعت الحرفيون القائمون بذلك بالسمانين ، مما يعد دليلا على شيوع استهلاك السمن مملحا من طرف الناس في وجباتهم الغذائية آنذاك . وقد كان مربو الأبقار متخصصون في تجميع السمن بقصد بيعه. ومارس هذه الحرفة أيضا أشخاص يشترون الزبد أو السمن من البقارين أو اللبانين، ثم يبيعونه في السوق المخصص لذلك، كان موجودا بالقرب من سوق الدخان[١]، حيث بيعَ السمن الموضوع في أوراق الكُرْنب بالمزاد العلني بوساطة من الدلالين إلى جانب مواد غذائية أخرى كالعسل والزيت. وأوراق الكرنب المذكورة كانت متوفرة بسوق الخضر[٢]، لكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة في البيع. إذ أن كميات السمن المعروضة استوجبت أيضا توفر أصحابها على آنيات أخرى من الفخار[٣] أساسا.

٩- عمل الإسفنج:

تلقب أصحاب هذا العمل بالسفاجين ، وحرفتهم هي صنع وبيع نوع من الفطائر يدعى الاسفنج، وكان تهييئه يتم بطريقة يتقنها أصحاب هذه الحرفة، حيث يعجن من الدقيق ثم يقلى في الزيت، فيصبح جاهزا لتناوله في وجبة الفطور[٤].

---

(١) نفسه، ص: ١٨٦.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٤٢.

(٣) تدعى بالجرار وكان حجمها يتسع لـ١٥٠ رطلا بيع فيها الزبد والعسل، ورد ذلك عند الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٦-١٨٧.

(٤) نفسه، ص: ١٨٦.

لقد اشتهر سوق الإسفنج منذ فترة سابقة لني مرين[١]، وكان ينعت بسوق الدخان لكثرة الأدخنة المتصاعدة في الهواء نتيجة القلي في زيت الزيتون. وهذا الزيت مثل إلى جانب الدقيق مادتين أساسيتين في تهييء الإسفنج.

وتقنيات هذه الحرفة يدوية استعملت فيها آنيات الطبخ والعرض وموضع النار.

لقد تواجدت حوانيت السفاجين قريبا من العشابين على الزقاق المفضي إلى عين علو عبر الجزارين، وهو الزقاق المؤدي إلى الطريق الغربية الممتدة من العطارين في اتجاه باب الشريعة[٢].

وقد تحدث الوزان عن بيع كميات كبرى من الإسفنج كل صباح بفعل الإقبال الكبير على ذلك. فسوق الدخان من الأسواق الشعبية كان الناس يتوافدون عليه بكثرة، ورواده من البسطاء.

**١٠- طهي الأطعمة:**

شهدت فاس طبخ بعض الأنواع البسيطة والخشنة من الأطعمة في دكاكين خاصة. كان البسطاء والفلاحون يضطرون إلى تناولها ليسدوا بها رمقهم.

وقد احتضنت الدكاكين الواقعة بسوق الدخان وحول سوق الخضر عمليات طبخ هذه الأنواع مثل الأكارع التي كان الفلاحون يتناولونها باكرا،أي عند

(١) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٥.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٦-١٨٨.

الإفطار[١]. كما شهدت دكاكين أخرى صناعة كرات من اللحم المفروم الذي يخلط مع كثير من التوابل ويقلى في الزيت ثم يقدم كطعام، ومصدر اللحم المفروم البقر الهزيل -أي المتقدم في السن- الذي بيع بثمن أرخص[٢].

لقد احتاج طباخو هذه الأنواع من الأطعمة لآنيات الطبخ عادة ما تكون معدنية أو فخارية استعملت بوضعها على النار للطبخ فيها، وآنيات من الخزف والفخار يقدمون فيها الطعام، ومكان توقد فيه النار داخل الدكاكين. أما المواد التي احتاجوا إليها فكانت قريبة من دكاكينهم تتمثل في الخضر والتوابل واللحم المفروم والسقط والزيت وغيرها. وعادة ما استعان الطباخون بغلمان في حرفتهم.

تم تقديم أصناف الحرف الغذائية الضرورية البسيطة بفاس. وقد تميزت بعضها بتعدد وتنوع التقنيات المستخدمة فيها وارتفاع حجم المنتوجات التي تحولها، وكثرة العمال والزبناء، كما هو الأمر بالنسبة للمطاحن والمعاصر والأفران، وقد كانت مصنوعات هذه الحرف أساسية في تغذية السكان وفي تزويد أرباب الحرف الغذائية الأخرى بما يحتاجونه من مواد. وتجتمع أصناف الحرف المذكورة إضافة إلى ذلك في بساطة تقنياتها وآلياتها رغم التركيب الذي يميز بعضها نسبيا.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٢) نفسه.

## المبحث الثالث

# صناعات النسيج والملابس

هذا هو الفرع الثالث من الحرف الضرورية البسيطة. ويشمل بالإضافة إلى نسج الأثواب وخياطة الملابس ، نسج الحصائر التي يأتي ذكرها مع هذه الحرف لتشابه تقنيات نسجها مع تقنيات نسج الأثواب. وتعتبر حرفة الحياكة أهم صنف في هذا الفرع من الحرف،حيث كانت تشغل عددا كبيرا من العمال، وتبعتها في الأهمية حرفة الخياطة، في حين كانت الحرف الأخرى وضيعة اشتغل أصحابها فقط بإعداد المواد التي يشتغل عليها النساجون.

وسيتم تناول أصناف حرف فرع النسيج واللباس الضروري البسيط بالتدرج حسب التسلسل الذي يربطها، حيث ستتصدرها الحرف التي اختص أربابها في تهييء المواد الأولية المستعملة.

### ١-عمل الصوف:

اشتغل بهذا العمل حرفيون اختصوا في شراء الأصواف التي كانت تجز[١] من الأغنام التي يملكها مربوها في البادية، ثم تنقل وتباع في أسواق المدينة ومحيطها. ودعي هؤلاء الحرفيون بالصوافين الذين كانوا يشترون الأصواف ليقوموا بغسلها وتنظيفها وتشميسها وجمعها[٢] وعرضها للبيع للمهتمين بتحويلها داخل المدينة وخارجها. وقد أشارت بعض الأبحاث إلى تصدير قسم منها إلى الأسواق الخارجية

---

(١) الجز هو قطع أصواف الأغنام كل سنة على يد الجزازين، والجزة هي مجموع الصوف لكل رأس من الغنم.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥

من بينها الأسواق الأوربية[١].

وقد استعان الصوافون بالغسالين في تنظيف الأصواف. وكان هؤلاء الغسالون يعملون أيضا في تنظيف أشياء أخرى غير الأصواف مثل الملابس والفرش والأغطية لأصحابها على مياه وادي فاس في عالية فاس الجديد[٢].

٢- غزل الخيوط:

اختصت النساء في هاته الحرفة. وقد كن يقمن بتهيئة مواد الصوف والقطن والكتان للنسج[٣]. واعتمدن في صنعتهن على تقنيات بسيطة، فقد كانت المرأة الغازلة تقوم بنفش وتنظيف المادة التي ستشتغل عليها، ثم تشرع في فتلها وتمديدها باستعمال حركات اليدين والرجلين ولولب خشبي تجمع فيه الخيوط يساعدها في عملها، يسمى بالمغزل، وبعد انتهائها من الغزل تجمع الغازلة الخيوط وما صنعته في ربطات تكون جاهزة للاستعمال من طرف النساجين.

وقد غُزلت مادة الصوف بكثرة مقارنة مع القطن والكتان. والدليل على ذلك بيع الصوف المغزول في سوق خاص قرب درب سلمى[٤] بمركز عدوة القرويين، في حين كان غزل القطن يعرض بسوق خاص بالمكان الذي بيع به القطن غير المغزول[٥]-أي القطانين-، ولم ترد معلومات عن مكان بيع غزل الكتان، وهو مؤشر

(١) Dufourcq : L'espagne Catalane, P : 68-85.

(٢) لوتورنو: فاس قبل الحماية: ج١، ص: ١١٠.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٤٢٠؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٨.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٣٤؛ Massignon:Le Maroc, P:232

(٥) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

على ضعف الكميات المغزولة منه. وقد عملت الإماء[١] والحرات من النساء في الغزل داخل المنازل، وكانت الحرات منهن محترفات في الغزل يتسلمن الصوف أو غيره من الزبناء ثم يقمن بالغزل مقابل أجر يحدد في البداية[٢].

٣- الحياكة:

هي الصناعة الرئيسية في نسج الأثواب، كان محترفوها يُدعون بالحاكة أو النساجين. وينعتهم العوام بالدرازة نسبة إلى الأطرزة التي اشتغلوا داخلها.

وقد أورد الخزاعي التلمساني في معنى النسج قائلا: «نسج الثوب ينسجه وينسجه نسجا، والصفة نساجة، والموضع مِنسج ومَنسج...». وقال أيضا: «أصل النسج ضم الشيء إلى شيء... أي ضم السدى إلى اللحمة»[٣]. وأضاف ابن خلدون عند حديثه عن الحياكة أنها «نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاما في العرض، وإحكاما لذلك النسج بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة من الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس»[٤]. ويستنتج من هذه النصوص أن عمل النساجين تمثل في مد خيوط السدى طولا، وخيوط اللحمة التي تكون أدق منها عرضا، ثم تجمع عن طريق نسجها باستعمال أدوات الحياكة التي تكمن أساسا في المناسج أو المرمات والأدوات الملحقة بها كتلك التي تحرك بها الخيوط بين اليمين واليسار من المنسج[٥] المصنوع هو وأدواته

(١) ابن القاضي: المصدر السابق، ج١، ص: ٣٢٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٥٤.

(٣) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٨.

(٥) هذه الأداة تعرف حاليا عند الدرازة بـ«النزق»، وتمكن من مد لخيوط الأفقية التي تمتد على عرض الثوب المعد لنسج.

من الخشب، والناعورات التي تجمع وترتب فيها الخيوط قصد نسجها. ويستخدم النساج أثناء عمله في المرمة بحركات اليدين والرجلين التي تفيد في جمع وضم السدى إلى اللحمة عند النسج. ويساعد النساج متعلمون ينوب بعضهم عنه أحيانا في النسج ويبيع آخرون المواد التي تعد لنسجها، ويجمعون الأثواب المنسوجة.

وقد وصل عدد الأطرزة بفاس خمسمائة وعشرين دارا توزعت على الأحياء والأزقة، خاصة في المناطق النشيطة القريبة من الأسواق التي تزود النساجين بحاجياتهم من المواد الأولية ويسوقون بها منسوجاتهم. وتكونت كل دار مخصصة للنسج من ما بين طابق واحد وثلاثة، وكل طابق يتكون من قاعات فسيحة وتضم كل قاعة عدة مناسج يعمل في المنسج الواحد عنصران. وامتلك النساجون المناسج والآلات التي ينجزون فيها أعمالهم، واكتروا القاعات من مالكيها، وشغّلت الحياكة عددا كبيرا من العمال بلغ عشرين ألف عامل[1].

ومارست النساء بمنازلهن أيضا عمليات النسج التي كن تتعاونن فيه[2]. وكانت بعض أصناف المنسوجات من اختصاصهن غير التي كانت تصنع بالأطرزة، وذلك بغرض أن يتمكن من تسويقها وبيعها حتى تتجاوزن منافسة النساجين في الأثواب التي يصنعونها بكميات كبيرة وتباع بأثمنة أكبر من التي تباع بها الأنسجة المنزلية.

وكانت الأثواب المنسوجة من القطن والكتان تستعمل في الملبوسات، في حين كانت المنسوجة من الصوف تلبس أو توضع فوق ملابس القطن أو الكتان،

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣.

(٢) القباب، أو العباس أحمد: مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ٢٢٤.

وتستعمل أيضا كأفرشة وأغطية.

### ٤- تلميع نسيج الكتان:

تخصص في هذه الحرفة أصحاب محلات تواجدت بحي القلقليين من عدوة فاس القرويين[١].

ولم تتحدث الكتابات التي أشارت إلى تلميع هذا النوع من المنسوجات عن طبيعة المواد والتقنيات المستعملة في ذلك. لكن الراجح هو أن بساطة نسيج الكتان وخشونته كانت تستدعي تلميعه حتى يلقى الإقبال عند البيع. ويحتمل أن تدخل المحاليل المعدنية والنباتية في التلميع الذي أعطى لهذا النوع من النسيج زخرفة بسيطة. ولعل النسيج الذي تم تلميعه هو القماش المزوق الذي كان يباع بسوق الخميس[٢] لأهل البادية وضواحي المدينة بشكل خاص.

### ٥- الخياطة:

عرف ابن خلدون هاته الحرفة بأنها «*تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعرائد تفصل بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تُلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة*»[٣] ويفهم من هذا التعريف أن حرفة الخياط هي تفصيل الأثواب عن طريق استعمال التقدير على جسم الإنسان بأخذ القياسات، ثم قص الثوب إلى القطع المقدرة بالمقص أو

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢، لازال هذا الحي معروفا بهذا الاسم يحتضن زاوية سيدي عبد القادر الفاسي على يسار المتجه من مدخل الرصيف المحدث.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٥٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤١١.

المقراض، ثم خياطة القطع باستعمال الإبرة والخيط حسب نوع الخياطة المطلوبة، التي تختلف حسب تقارب وتباعد الخيوط المعتمدة في تلحيم القطع.

لذلك فالمهارة اليدوية للخياط اعتبرت أساسية في تحويل المنسوجات إلى ملبوسات، وأشار ابن خلدون أيضا إلى أن سكان البادية كانوا يميلون إلى لباس الأثواب منسوجة دون خياطة عكس سكان الحضر الذين أقبلوا على ارتداء الأثواب المخيطة[١].

لقد احتوت أسواق فاس على المواد والأدوات التي اعتمدها الخياطون، فإضافة إلى المنسوجات التي وفرتها دور النسيج، توفرت بأحد الأسواق مادة الخيط كانت تباع به هذه المادة[٢]، كما صنعت الإبر بالمدينة وبيعت الأمقاص والقالات[٣]التي استعملت في القياس

وكانت حرفة الخياطة تتم بدكاكين داخل المدينة، كما مورست أيضا داخل البيوت. فقد ضمت إحدى أزقة القيصارية دكاكين خاصة بالخياطين، إضافة إلى دكاكين أخرى بعدوة الأندلس غير بعيد عن وادي فاس[٤].

---

(١) نفسه، ص ص: ٤١١-٤١٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

(٣) القالات: جمع لقالة وهي أداة تقاس بها الأثواب عند بيعها أو تفصيلها بقصد خياطتها، وقد استعمل في مدينة فاس نوعين من القالات هما: الكتانية طولها ٥٥ سنتيمتر والقالة الدرازية طولها ٤٦ سنتيمتر، للاطلاع على ذلك يتم الرجوع إلى : المنوني : أبحاث مختارة، ص: ٨٥، وورقات، ص: ١٤١.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٤٩، ١٥٥؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤.

وتنوعت الملابس التي صنعها الخياطون، فشملت ملابس نسوية وأخرى ذكورية، والتي اختص البزازون في بيعها ،إذ انتشروا في أهم أسواق المدينة.. كما بيعت بعض أنواع الملابس في الأسواق الخارجة عن فاس

٦- الحصارة:

تدخل الحصارة ضمن حرف النسج للتشابه في الآليات والتقنيات بينها وبين حياكة الأثواب. ويُعرف المحترفون للحصارة بالحصريين أو الحصايريين[1]، إذ يصنعون الحصر التي هي بسط من الخوص تفرش على الأرض وتغطي بعض الأنواع منها الجدران، وفي هذه الحالة تنعت بالحياطي في إشارة إلى تغطيتها للحيطان.

واعتمد الحصايريون في أعمالهم على خوص الدوم والحلفاء وغيرها، كانت تلحم بشرائط مصنوعة من الدوم أو الحلفاء أو القنب، وذلك بنسجها في المرمات على الطريقة التي تم الاشتغال بها في المرمات الخاصة بالأثواب مع وجود تغيير بسيط تجسد في دقة تقنيات حياكة الأثواب مقارنة مع نسج الحصر.

واحتاجت حرفة الحصارة لأعمال أولية تمثلت في إعداد مواد النسج، وخاصة القنب وفتائل الدوم والحلفاء أو مواد أخرى مثل «السمار» حتى تصبح جاهزة للاشتغال عليها. إذ يتم مد هذه المواد فوق المنسج ثم تنسج من طرف الحصايري ومساعديه لتصبح جاهزة، وبعد تحويلها إلى حصر مختلفة في النوع والشكل والأبعاد

(١) بوشعراء، مصطفى: الحصارة بمدينة سلا، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع٢٤، ٢٠٠١، ص: ١٢٧.

تباع للزبناء بدكاكين الشراطين المتخصصة في صنع وبيع القنب[1]، مما يوضح التداخل بين صناعة القنب ونسج الحصر.

وكانت بعض الحصر تزخرف بالأصباغ الملونة، توضع بواسطتها أشكال هندسية على واجهتها تضفي عليها جمالا.

كان أهل البادية والمدينة زبناء للحصايريين أو التجار الذين يبيعون الحصر. وقد احتاجت المساجد بدورها إلى عدد كبير من الحصر، حيث كان نظار الأوقاف والمشرفون على شؤون المساجد يكلفون الحصايريين بصناعة ما يحتاجونه منها بشروط يتم الاتفاق عليها مسبقا.

مكنت حرف النسج وصناعة اللباس من سد بعض ضروريات الإنسان بالمدينة ومحيطها، فأتاحت وقاية جسمه من الحر والبرد داخل المنازل وخارجها حتى يكون مستعدا للقيام بما هو مؤهل له.

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

## المبحث الرابع

### حرف الخدمات

الخدمات هي الأعمال التي أنجزها أشخاص داخل المدينة لبوا بواسطتها حاجيات أنشطة متعددة. ويعتبر عمل الحمالين أهم الخدمات المقدمة حيث قاموا بنقل الأمتعة والبضائع. إضافة إلى عمل الدلالين الذين مثلوا وسطاء في بيع وشراء عدة أنواع من المواد والمنتوجات. وقد تميز الممارسون لهاتين الحرفتين بكثرة العاملين فيهما، وبإحكام تنظيم أعمالهما، والتعاون والتآزر بين المحترفين بهما.

تباينت الحرف الخدماتية من حيث الفئات المستفيدة من أعمالها، إذ كان الحمالون والدلالون يخدمون عامة الناس، في حين خدمت الحرف الأخرى مثل أعمال الحراس والغسالين الصناع والتجار بشكل خاص، وقدم السقاؤون والخدم طاقاتهم ومهاراتهم لفائدة أرباب المنازل، وسهر الحجامون على تطبيب عامة الناس ووقايتهم من الأمراض، في الوقت الذي اختص فيه البياطرة في علاج الدواب.

١- الحمل و النقل:

مارس هذه الحرفة الحمالون الذين عملوا بحمل ونقل البضائع والأمتعة ومواد مختلفة داخل أسوار المصر[١] عبر الأزقة والدروب والأحياء والشوارع، كما كانوا أحيانا ينقلون بعض المواد من وإلى ظاهر المدينة مثل مواد وبقايا البناء، وقام الحمالون في بعض الأوقات بنقل الأخبار والرسائل إذ تولوا الإعلان عنها في أرجاء المدينة[٢].

---

(١) المصر مصطلح يرادف المدينة كما أورده ابن خلدون، وسياق الحديث هنا عن مدينة فاس، الرجوع إلى المقدمة، ص ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٤٦، ٨٢.

ومثلت الدواب من الحمير والبغال وأحيانا الخيول وسائل رئيسية عند الحمالين. وقد تميزت بنية المدينة بتوفرها على المرافق التي تمكن من إيواء الدواب كالأرويات أو الإسطبلات، والفضاءات والمساحات المخصصة للرعي داخل المدينة وحولها.

وقد استعمل الحمالون في حرفتهم بالإضافة إلى الدواب أدوات أخرى قليلة وبسيطة مثل الأكياس والحبال، ولوازم الدواب من برادع وغيرها. مما كان يساعدهم في حمل ونقل البضائع ذات الحجم والحمولة المرتفعين أحيانا، وكان الحمالون أيضا ملزمين أثناء عملهم بارتداء كسوة خاصة تتسم باللون الموحد والقصر[١].

وصل عدد الحمالين بفاس في الفترة المرينية ثلاثمائة شخص ينتمي جلهم لقبيلة إزرزاين البربرية. وقد عُرِفوا إلى وقت قريب بزرزاية نسبة إلى القبيلة المذكورة التي كانت تستقر بالمغرب الشرقي، ثم انتقلت إلى فاس منذ تأسيس هذه الأخيرة[٢].

كان عمل الحمالين يتم بصفة جماعية، وهو ما استوجب تنظيما ضمانا لاستمرار الحرفة وخدمتها لمن يحتاج إليها. حيث كان يتم تقسيم المنخرطين في الحرفة إلى فرق لكل واحدة رئيسا بحوزته صندوق تجمع فيه النقود المحصلة من طرف أفراد الفرقة. ويشرف أمين الحمالين في نهاية كل أسبوع على توزيع النقود على أفراد الحرفة.

مثلت الأبواب والساحات وملتقيات الطرق، أهم النقط التي كان يتجمع فيها

---

(١) نفسه، لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٨١.

(٢) Bernoussi Saltani : Les serviteurs de la cité, Fès médiévale « entre légende et histoire, un carrefour de l'orient à l'apogée d'un rêve, dirigé par Mohamed Mezzine, ;éditions Autrement, Paris, Série Mémoires N° : 13, 1992, PP : 184-187 لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٨١

الحمالون كي يكونوا رهن إشارة الزبناء. لكن الساحة التي كانت موجودة بمركز عدوة القرويين حول أهم أسواق المدينة في المكان المعروف حاليا بالنجارين مثلث موقعا رئيسيا لتجمع الحمالين.

تعامل الحمالون مع زبناء مختلفين أهمهم الحرفيين والتجار. وكان للجزارين حمالين خاصين بهم ينقلون لهم اللحم من المجزرة، الواقعة آنذاك على الوادي الفاصل بين العدوتين، إلى دكاكينهم عن يمين الخارج من العطارين إلى عين علون، ومكن عمل الحمالين من نقل الحبوب للتجار ولأرباب المطاحن من خدمة أصحاب الحمامات والأفران عن طريق حمل ما يحتاجونه من مواد توقد النار [1]. ولم يستفد من عمل الحمالين الحرفيون والناشطون المذكورون فقط، بل استفاد منه أيضا سكان المدينة وغيرهم.

٢- الدلالـة:

كان المتخصصون فيها ينعتون بالدلالين جمع دلال، وهي حرفة مهمة القائمين بها الوساطة في عمليات بيع وشراء البضائع بأسواق المصر، والدلال دعي أيضا بالسمسار [2]. كانت مهمته هي عرض السلع على الراغبين في شرائها، والمناداة بصوت عال بثمنها، ثم تسليمها لمن قدم أكبر ثمن بعد رضى البائع به.

لقد اشترطت في شخص الدلال شروط الثقة والأمانة، اعتبارا لقيمة المعروضات التي تسلم له وتودع لديه قصد بيعها، وتجنبا لبخس حقوق البائع والمشتري. وقد أقر الفقهاء هذه الشروط في شخص الدلال بعد نقاش بينهم حول

(١) نفسها.

(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، ص ص: ٧١٨-٧١٩.

مشروعية ممارسة الحرفة. حيث توصلوا إلى ليتم الاتفاق على جوازها شريطة أن تكون الأجرة معلومة[١].

نظم الدلالون حرفتهم بفاس، إذ تواجدت فرقهم في أهم الأسواق، وكان كل واحد منهم يقوم بحمل البضاعة أو عينات منها إذا كانت الكمية كبيرة، ويطوف بها على الراغبين في شرائها من المتوافدين على الأسواق مساء كل يوم. حيث كانت تنطلق الدلالة من بعد الظهر إلى وقت متأخر من المساء. ويتم الشروع في الدلالة بعد افتتاح الثمن من أحد الزبناء أو من شخص عارف بقيمة البضاعة على أن لا يتم البيع له باعتباره فاتحا لسوم البضاعة فقط. وتدفع البضاعة لمن قدم الثمن الأكبر الذي يتوصل به البائع بعد خصم أجرة الدلال التي حددت في فلس واحد لكل درهم بالتقريب في أنواع من البضائع[٢]. لذلك فأجرة الدلال هي نسبة محددة من مبلغ البيع.

كان عمل الدلالين أيضا ذا صفة جماعية، حيث يجتمع هؤلاء بالسوق ويقوم بعضهم، موازاة مع عمليات الوساطة في البيع، بتدوين المبيعات، مما يوضح أن جمع الأجر وتوزيعه بينهم في نهاية الأسبوع كان أمرا حاصلا كما هو الشأن بالنسبة للحمالين. ورغم عدم توفر إحصاء حول العدد الإجمالي للدلالين، فإن المؤشرات المتوفرة حولهم تدل على كثرة العدد، فقد وُجِد في سوقين فقط مائة وثلاثون دلالا[٣].

ونشطت عمليات وساطة الدلالين في بيع مجموعة من السلع والمنتجات

---

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ص: ١٩٢-١٩٣؛ المهدي الوزاني: تحفة أكياس الناس، تحقيق: مولاي هاشم العلوي القاسمي، ص ص: ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ المهدي الوزاني: المصدر السابق، ص: ٢٣٩.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

بالأسواق الكبرى خاصة بعدوة القرويين، ونذكر منها : القيصارية[١] التي سوقت بها الأثواب والأحذية ، وسوق الأقمشة الصوفية الغليظة الذي تموقع بالجوطية الحالية، وسوق الملف الذي بيعت فيه أصناف من الأقمشة المستوردة من أوربا اختص الغرناطيون في بيعها بأسواق باب السلسلة، وسوق الزيت الذي بيع فيه أيضا السمن والعسل والجبن والزيتون وعرف هذا السوق بقاعة الزيت، إضافة إلى سوق الكتبيين[٢].

٣- الحـراسة:

مارسها الحراس الذين اشتغلوا بحماية ممتلكات السكان والحرفيين والتجار داخل المدينة من النهب أو السرقة أو الحرائق أو ما قد تتعرض له من أذى. وعرف الحراس أيضا بالعسس[٣] دلالة على العسة التي تكون في الليل.

كانت حرفة الحراسة تمارس بوجود الحارس في المنطقة التي يتولى حراستها، إذ يغلق الأبواب ويراقب الحركة مستعينا في ذلك بوسائل كالفوانيس والكلاب والسلاح[٤] مثل العصي وأنواع من الأدوات الحادة التي تمكنه من الدفاع عن نفسه وعما يحرسه، وملاحقة وقبض من يهاجمه أو يريد السطو على الأشياء التي تحت نظره.

---

(١) تعد القيصارية من الأسواق المهمة في فاس تقع بين جامع القرويين (من جهة القبلة ) وسوق العطارين (من شمالها ) وسوق الشماعين ( من جنوبها ).

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩؛ الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها؛ المقري: أزهار الرياض، ج٤، ص: ٢١٣.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٤٧، ٧٥، ١٦١.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص: ١٩٠.

وعمل الحراس على حماية أسواق المدينة الرئيسية كالقيصارية وسوق العطارين وأسواق باب السلسلة، إضافة إلى مختلف الأحياء والمرافق التجارية والحرفية والسكنية. فقد تكلفوا بإحكام غلق الأبواب ومراقبة ما يوجد خلفها من بضائع وأمتعة وممتلكات، وذلك بالمكوث بها طول الليل مع نوم بعضهم في الأسواق أحيانا، حيث يوقظون من نومهم عند حدوث خطر ما[1].

التزم التجار والحرفيون والسكان بدفع أجور الحراس الذين يخدمونهم ولعل الأجور كانت تدفع بصفة جماعية من طرف أمناء الأسواق ومسؤولي الأحياء.

٤- الغسل:

الغسل أو التصبين لذلك عُرف أصحاب هذه الحرفة بالغسالين أو بالصبانين، واشتغل بها الرجال والنساء ، فكانوا يقومون بغسل وتصبين الثياب والأصواف وما شابهها من أغطية وأفرشة.

واعتبرت المجاري المائية والأماكن القريبة منها مفضلة في ممارسة الغسل والتصبين وذلك لأهمية الماء في هذه الحرفة، حيث يعد المادة الرئيسية التي تكاد تكون الوحيدة، إذا تم استثناء استعمال مواد للتنظيف مثل الصابون[2]. وبالنظر لأهمية الماء كانت للغسالين محلات وأماكن داخل المدينة وفي ظاهرها من الجهة الغربية، حيث يجري وادي فاس. فبداخل المدينة استقر الغسالون بدكاكين في الطالعة الكبرى أسفل السراجين في أكثر من عشرين دكانا، واشتغل آخرون بدكاكين متفرقة بالمدينة وصل عددها مائتين، وبخارج المدينة سكن الغسالون بأكواخ وصل عددها مائة

(١) نفسه؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٠؛ لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٤٧.

(٢) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٧١.

تواجدت على مياه الوادي بعالية فاس الجديد. وأصول ساكني هذه الأكواخ من البدو الذين هاجروا إلى فاس ومارسوا هاته الحرفة الوضيعة وقطنوا حيا وضيعا أيضا [١]. وكان هؤلاء على مقربة من مياه الوادي التي استغلوها في غسل وتصبين ما يقدمه لهم الزبناء من ملابس وأصواف وغيرها، في حين أن غسالي المدينة كانوا أحسن حالا بامتلاكهم للدكاكين التي يحملون إليها المياه ويغسلون ما يقدمه لهم الحرفيون أو التجار أو قاطنو الأحياء. إن كثرة عدد الغسالين وانتشارهم في مواقع مختلفة من مجال المدينة وضاحيتها، يفسر الحاجة الملحة إليهم وتنوع زبائنهم الذين تنوعت أنشطتهم من منزلية إلى اقتصادية تمثلها التجارة والصناعة.

واستلزمت حرفة الغسالين التوفر على مجموعة من الأدوات والآليات باعتبارها وسائل في ممارسة الحرفة. فقد كان لأصحاب الدكاكين منهم أوانٍ كبيرة تشبه الأحواض[٢]، تحوي المياه المستعملة في عمليات الغسل والمنقولة إليها من الجداول المائية أو من العيون والسواقي الموجودة بمناطق متعددة من مجال المِصْر. وإضافة إلى الأواني الكبرى احتاج الغسالون لآنيات صغرى يحملون بها الماء وينظفون داخلها الثياب أو الأصواف أو غيرها، فضلا عن قطع الخشب والحجر التي نعتت بالمصابن، والتي توضع فوقها المواد المراد تنظيفها ويفرغ عليها الماء ومواد التنظيف الأخرى، ثم يضرب عليها -إن تطلب الأمر ذلك- بقطع خشبية بالشكل الذي يخلصها من الأوساخ.

وقام الغسالون إضافة إلى الغسل والتنظيف بتشميس الأصواف والثياب

(١) المهدي الوزاني: المصدر السابق، ص: ٢٢٣.

(٢) مارمول؛ المصدر السابق، ج٢، الصفحة نفسها.

وجمعها وترتيبها [١] قبل تسليمها لأصحابها.

٥- السقـاية:

تدل على جلب الماء إلى المنازل أو إلى عابري المدينة. والإشارات المصدرية إلى هذه الحرفة قليلة، مما يبرر قلة شيوعها نظرا لكثرة المياه بالمنازل والأزقة. لكن مع ذلك احتاجت بعض الأسر إلى سقي الماء من مكان موجود خارج البيت الذي تقطنه [٢]، وذلك ما كان يضطرها إلى استئجار سقاء للقيام بذلك. وقد مارس بعض الأشخاص حرفة سقي الماء للمارة، بوضعه داخل قربة جلدية [٣] والطواف بالأزقة الكثيفة المرور يزودون الظمأى منهم بالماء مقابل أجر ونشطت حرفة هؤلاء في فصل الصيف لشدة الحرارة وكثرة الحاجة إلى الماء البارد الذي تحتويه قِرَبهم.

٦- الحجامـة:

عالج محترفو الحجامة عدة أمراض أصابت الإنسان كالقروح وأمراض الصدر والشرايين والبرد وغيرها، إضافة إلى قيامهم بأعمال واقية للصحة مثل الختان والحلاقة.

وتمثلت تقنيات الحجامة في معالجة الأمراض في مواقع المحاجم بنقط متعددة من جسم الإنسان. وقد تم العلاج بطرق وتقنيات عدة أهمها الحجامة الجافة، وتجري بوضع الكأس فوق منطقة الألم، والحجامة الرطبة وذلك بشرط المنطقة المعالجة بآلة حادة تتيح خروج الدم، والحجامة باستعمال النار والكي لمواطن

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٥.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٤.

المرض[١]. ويفيد كل نوع من الأنواع المذكورة في علاج أمراض محددة. وتتوحد هذه الأنواع في كونها تمكّن من إزالة الدم المتعفن وتحسين دورته داخل الجسم وتوارده على مناطق معينة فيه.

يقوم الحجام أيضا بعمليات ختان الأطفال المعروفة أيضا بالإعذار، عن طريق إزالة جلدة من إحليل الطفل بواسطة أداة المقص أو الخيط ووضع الدواء على الجرح[٢] بعد سيلان دم يسير.

مارس الحجام أيضا الحلاقة بإزالة الشعر من رؤوس الرجال والأطفال بواسطة أدوات كالأمقاص والمواسي والأمشاط. وقد استقر الحلاقون داخل الحمامات يمارسون حرفتهم هناك مقابل تأديتهم أجرا معلوما لأصحابها[٣]، ومارسوا الحرفة أيضا بالدكاكين والأضرحة والأسواق والمنازل.

اختص الحجام في علاج أمراض الفم والأسنان، فكان يقلع السن أو الضرس الذي يسبب الألم لصاحبه باستعمال الكلاليب، كما عالج أمراض اللوزتين والحلق بالجراحة أو باستعمال النار والكي[٤].

كانت حرفة الحجام تقتصر أحيانا على أحد التخصصات السابقة وتجمع أحيانا أخرى بين بعضها أو جميعها، لكن فئة الحجامين ضمت أشخاصا كانوا يعالجون

---

(١) الشطشاط، علي حسين: تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن ٣ إلى القرن ٧هـ/ ٩ إلى ١٣م) رسالة دكتوراه في التاريخ، إشراف: ابراهيم حركات ومحمد بن سودة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٦-١٩٩٧، الجزء٢، ص ص: ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) نفسه، ص ص: ٥٧٦-٥٧٧؛ الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص: ٣٤٤.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٠.

(٤) بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية، ص: ٩٨؛ الشطشاط: المرجع السابق، ص ص: ٥٠٢-٥٠٣.

الأمراض دون أن يكونوا ضالعين وعارفين بتقنيات العلاج، مما جعلهم ينعتون أحيانا بالجهلة.

٧- البيطرة:

كانت حرفة البيطرة تتم بالعناية بالدواب عن طريق وضع الصفائح في سنابكها[١]، وعلاجها من بعض العيوب والأمراض. إذ كان البيطري يقوم بعد تسلمه الصفائح من الحداد بتثبيتها في أرجل الدواب بواسطة المسامير. أما معالجة العيوب والأمراض فتمت عن طريق الكي والجرح وتحديد بعض الوصفات لها.

وكانت ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين مجالا احتضن أيضا حرفة البيطرة بموقع قريب من الصباغين[٢]. ويُبَرَّر استقرارهم هناك ببعد المكان عن السكان وقربه من الحدادين الذين كانوا يزودونهم بالصفائح والمسامير.

وقد احتاج البياطرة في حرفتهم لأدوات تكونت من المطارق وزبرات حديدية التي يصلحون بها الصفائح ثم يثبتونها في أرجل الدواب، إضافة إلى الآلات الحادة التي يعالجون بها الدواب من الأمراض.

وقد اتهم الفقهاء البياطرة بالجهل وقلة الأمانة والورع، إذ كانوا يشخصون عيوبا في الدواب غير مصابة بها، وهو الأمر الذي كان يستغله أصحاب الدواب، فيردونها للذين اشتروها منهم بعد مدة من الاشتغال بها، وهو ما جعل الفقهاء لا يجيزون الرد في الدواب بعد مرور شهر على شرائها[٣].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢، ويقصد بالسنابك الأرجل.

(٢) نفسه.

(٣) أفتى في هذا الأمر الفقيه أبو محمد عبد الله العبدوسي والإمام القوري وهما من فقهاء فاس، ورد ذلك

لبت الخدمات التي قدمها الحرفيون في إطار تخصصاتهم السابقة حاجيات عامة الناس داخل المدينة. وقد تنوع الزبناء المستفيدون من الحرف الخدماتية، فكانت أعمال الحمالين والدلالين والحراس تقدم بصفة خاصة لفائدة التجار والحرفيين، أما أعمال الغسالين والسقائين فخدمت أرباب المنازل على الخصوص، في حين خدم البياطرة الحمالين بتصفيح دوابهم وإصلاح عيوبها. وقد خدم الحجامون فئة الأطفال فأدخلوا الفرحة عليهم وعلى ذويهم .

عند الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ١٢٩.

## المبحث الخامس

### حرف البناء والفخار وتحويل الخشب والجلد

يعد البناء من أمهات الصنائع، ومن الحرف الضرورية في العمران، إذ يوفر المساكن أو المآوي للأبدان. وتتداخل أعمال تهييء مواد البناء في التقنيات مع صناعة الفخار بصناعة مواد البناء من آجر وزليج بنفس المواد والتقنيات التي يصنع بها الفخار.

والنجارة أهم صناعة في تحويل الخشب، ترتبط بها صناعات خشبية أخرى تلبى بمصنوعاتها ضروريات الناس، الذين كانت حاجاتهم ماسة إلى بعض المصنوعات الجلدية البسيطة أهمها النعال والأخفاف التي تُلْبس في الأرجل.

# المطلب الأول

## حرف البناء والفخار

تمثلت حرف البناء في أعمال إعداد مواد البناء من جير وآجر وزليج إضافة إلى تشييد المباني، ومد القنوات التي تجلب المياه وتصرفها. وتمت أوراش صناعة الفخار في الأماكن التي صنعت بها بعض مواد البناء في محيط أسوارالمدينة والفضاءات الموجودة في أطرافها ، وتعتبر الأواني والقنوات التي تمر عبرها المياه أهم مصنوعات الفخارين.

### ١- عمل الجير:

دُعيت مادة الجير في بعض المصادر التاريخية باسم الكلس[١]، وهو ما يدل على أن أصل هذه المادة من صخور الكلس ذات اللون الناصع البياض تتخذه بعد طبخها في درجة حرارة جد مرتفعة. وهو ما عرفته أفران أو كوشات الجير المتميزة بكثرة العدد في المرحلتين المرينية والوطاسية، حيث قاربت و زادت عن العدد الذي أحصي في نهاية العصر الموحدي البالغ مائة وخمسة وثلاثين كوشة[٢]، وذلك بالنظر للحاجيات المتزايدة لهذه المادة نتيجة التوسع العمراني الذي عرفته المدينة باستمرار.

وقد توفر محيط أسوار المدينة على مواقع عمل الجير، فقد كان موضع القلة بالجهة الشمالية للمدينة غني بالصخور التي تحول إلى جير[٣]، ولا زال هذا المكان

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص ص: ٤٣٣-٤٣٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ص: ١٥٥.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨؛ الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤.

(٣) Massignon : Le Maroc dans le 16ème siècle, P P : 138 , 235-

نشيطا في هذا العمل. وكانت بعض الأماكن البعيدة نسبيا عن المدينة تزودها بحاجياتها من الجير، إذ ذكر الوزان أن الجير كان يُستخرج على بعد ميل من مدينة فاس[١]، والجهات الجنوبية في اتجاه صفرو الحالية مؤهلة لذلك نظرا لانتشار صخور الكلس فيها.

وقد استعمل صانعوا مادة الجير تقنيات حفر الصخور ثم طبخها في الأفران أو الكوشات التي تبنى في موقع استخراج الصخور.

لقد تعددت استعمالات الجير في البناء، فكانت تلحم بخليطه قطع الأحجار والآجر التي يتم بها البناء، كما تُجَلَّل وتلبس به الحيطان، وتسقف به البنايات عن طريق وضعه فوق الألواح الخشبية[٢].

### ٢- عمل الآجر والزليج:

اعتُمِدت مواد صخرية في صناعة مادتي الآجر والزليج، لكن الثانية زادت على الأولى بالصباغة التي تطلى بها قطعها.

وقد احتوت المناطق المحيطة بفاس على كتل صخرية طينية، إذ أشار ابن الخطيب إلى أهمية هذا النوع من الصخور حين وصفه لمدينة فاس قائلا: «وطينها هائل»[٣]. فقد كانت الجهة الجنوبية بضاحية المدينة غنية بصخور الطين[٤]، التي حولها الحرفيون إلى آجر وزليج ومواد أخرى مثل الخزف، ولا زالت هذه الجهة

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٢٥.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص ص: ٤٣٤-٤٣٥.

(٣) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٨.

(٤) Massignon : Le Maroc, P : 75.

تحتضن صناعة هذه المواد وتدعى بـ «اللواجريين» مما يشير إلى عمل الآجر بها.

كانت الأفران أيضا أهم الآليات المعتمدة في عمل الآجر سواء الذي يوجه للبناء أو الذي يحول إلى زليج. فالاختلاف بين قطع الآجر والزليج كان في الأبعاد فقط أما المواد والتقنيات فمتشابهة، إذ صنعت قطع الآجر مستطيلة وسميكة أما قطع الزليج فمربعة وضعيفة السمك. وقبل أن تطبخ القطع المذكورة في الأفران يتم خلط المواد الصخرية التي تدخل في صناعتها بالماء، ثم تفرغ في القوالب وتُشَمَّس. وعادة ما كانت الأفران الموجودة في محيط المدينة تصنع الآجر والزليج، إلا أن الوزان ذكر أن بعضها اختص في عمل الآجر فقط[1].

لقد مكنت عمليات طبخ الآجر والزليج في الأفران من تميز قطعها بالصلابة، لكن قطع الزليج توجه بعد خروجها من الأفران لتصبغ منها الكميات المطلوبة بألوان مختلفة قبل تحويلها من طرف النقاشين إلى قطع صغيرة ومختلفة الأشكال كي تصبح جاهزة للفرش في المباني.

٣- البناء:

تعد هاته الحرفة أساسية في إنشاء المآوي للسكان . وتتميز بتعدد الأشغال المنجزة بواسطتها، المتمثلة في حفر أساسات الدور والمنازل بعد تخطيطها، ثم بناء الأسوار وأدراج السلاليم، ومد السقوف، وتركيب الأبواب والنوافذ، إضافة إلى بناء القرميد وتلبيس الجدران...

ويساعد البناؤون في هذه الأشغال متعلمون يستخدمون لديهم يتدربون على ممارسة مهارات وتقنيات حرفة البناء، كما يستأجرون أشخاصا يعتمدون على

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٢٥.

طاقاتهم العضلية في الحفر وحمل ونقل مواد البناء.

لقد اعتمد البنّاء على مادة الجير في البناء أو البني، والتي كانت تحلل بالماء، ثم «تخمر لمدة أسبوع أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه (الجير) عن إفراط الناريَّة المفسدة للإلحام»[١]. بمعنى أن جودة خليط الجير لا تحصل إلا بعد الالتحام والانسجام الكبير بين أجزائه، حيث إن تعمير البنايات الطويل كان يستلزم جودة مواد البناء ومنها خليط الجير المستعمل في أشغال البناء.

ويتم الشروع في أعمال البناء بحفر أساس المبنى حيث كان البناء يبنى سور هذا الأساس بالحجر الملحم بالجير، ثم يتبع ذلك بناء الأسوار بالآجر أو الطوب[٢]، وقد بنيت بالآجر معظم دور فاس العتيقة وبعضها بني بالحجر[٣] أو الطوب، وهي المواد نفسها التي شيدت بها دور فاس الجديد. وتحتوي الدور المبنية على سلاليم تؤدي إلى المستويات الفوقية، التي بنيت بنفس الطريقة التي شيدت بها الأسوار لكنها اختلفت معها في التصاميم التي رُوعِي فيها تعدد الأدراج والانعطافات. واشتغل البناؤون أيضا بتسقيف المباني عن طريق تثبيت الدعائم الخشبية (الكايزة) بين سوري كل واحدة، ومد الألواح (الورقة) الخشبية فوقها، ثم إفراغ خليط الجير والتراب فوقها.

كما أشرف البناؤون على تركيب فصائل الأبواب والنوافذ في المداخل والفتحات، وثبتوا الشبابيك الخشبية (المشربيات) بالشرفات المنفتحة داخل المنازل.

وبعد الانتهاء من هذه الأشغال تتم عمليات تجليل الحيطان[٤] وتلبيسها بخليط

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٣.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥.

(٣) نفسه.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣١٤؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر عثمان:

الجير، ثم تبييضها[١] بخليط محلول الجير والجبص من طرف حرفيين مختصين أو من طرف مساعدي البنائين.

لقد احتاجت أشغال البناء المذكورة إلى أدوات تميزت بالبساطة، فأعمال البناء اعتمدت بدرجة أساسية على المهارات اليدوية. وما دامت أدوات البناء متشابهة بين الأمصار والأقطار، وفي ظل ندرة الإشارات المصدرية إليها، يمكن الرجوع إلى ما توفر من ذلك من معلومات على قلتها واستثمارها بالشكل الذي يوضح الصورة عما شهدته فاس، فقد أشار ابن الرامي في إطار حكمه في نازلة عُرضت عليه حول الإجارة والجعل في البناء، أن الأدوات التي على البنَّاء توفيرها هي القفاف والفؤوس والدلاء، وأوجز هذه الأنواع في عبارة واحدة هي «آلة البناء»[٢]. لذلك كانت الأدوات الثلاث أساسية في أعمال البناء، إذ أن القفاف التي كانت تصنع بفاس[٣] استعملت في حمل مواد البناء، والدلاء في حمل الماء، والفؤوس في أعمال الحفر وخلط مواد البناء وماشابهها. وقد ذكر ماسينيون[٤] أن أداة الفأس كانت شعبية في القرن ١٠هـ/١٦م أي منتشرة الاستعمال، وأورد ابن الأحمر كلاما وضَّح فيه أن هذه الأواني وغيرها كانت تعرض للكراء بفاس.

وتطلبت عمليات البناء أيضا آنيات كبرى تفرغ فيها المياه وآلات أخرى للحفر

---

التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، دون تاريخ، ص: ٩١.

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥؛ بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٨٧.

(٢) ابن الرامي، محمد بن ابراهيم اللخمي: الإعلان في أحكام البنيان، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٦٦٨ د، ورقة ٣٤.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢.

(٤) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 siècle, P : 220.

وإعداد مواد البناء مثل المسحاة والمعول والعتلة[١] وكلها مصنوعة من مادة الحديد ومقابضها من العود.

٤- مد القنوات:

القنوات أو القني هي التي كانت تزود المباني بالمياه المستعملة في الشرب والأشغال المنزلية، أو التي تصرف عنها المياه المستعملة في اتجاه المعدات[٢].

ودعي المتخصصون في هذه الحرفة بالقنويين ،كانت أعمالهم تتمثل في ربط المباني بالفرع الرئيسي للماء عن طريق مد قناة بينهما تمكن من تزويد القاطنين هناك بالماء. وتطلبت هذه الحرفة من القنويين معرفة وخبرة بالتقنيات الهندسية للسطح الذي تمد فوقه القنوات وبجريان الماء التي يعبر قواديس الفخار[٣]، حيث إن قوة الجريان تعد وسيلة في مد المباني بمرافقها ومستوياتها بالكميات الكافية والمستمرة من المياه. فالمباني وما تحتويه من مرافق كبيوت الطهارة والسقايات المنزلية والحصات أو البيلات والمطابخ وغيرها إضافة إلى تعدد مستويات المباني، استدعت كميات كافية من المياه توزع بواسطة قنوات معدنية على وحدات البنايات.

وقد اعتُمدت قنوات الفخار أيضا في صرف المياه المستعملة المتجمعة في المعدات التي تحفر في محيط المنازل.

وقد استعان القنويون في أعمالهم بمستخدمين يساعدونهم في حمل القنوات وخلط مواد البناء التي تربط بين القنوات، وحفر المحاور التي تمد فيها القنوات،

---

(١) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ١٩٨.

(٢) المعدات: جمع معدة وهي حفرة كبيرة الحجم كانت تسمح باحتواء المياه التي تصرف من المنازل.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٢.

والمعدات التي تفرغ فيها القاذورات.

ولم تكن كل المنازل مزودة بالقنوات المائية، فقد كان الكثير منها تحتوي فقط على العيون والآبار[١]، وكان عدد منها يتزود بالماء بسقيه من السقايات الموجودة في محيطها.

٥- صناعة الفخار:

مثّل الطين مادة أساسية في صناعة الفخار. وكانت الأواني المنزلية والقنوات المائية أهم منتوجات الفخارين. وقد عُرف الفخارون أيضا بالقلالين نسبة إلى القلال كنوع من الأواني المنزلية، ودعيت إحدى حومات فاس بالقلالين داخل سور المدينة من جهة باب الفتوح[٢]، تميزت بوجود مقبرة بها، وهو ما يرجح أنها كانت في فترات سابقة فضاءات فارغة تحتضن أنشطة من بينها صناعة الفخار التي استغلت فيها الصخور الطينية، واستخدمت فيها وسائل أهمها الأفران التي كانت تطبخ فيها المصنوعات الفخارية.

واحتضن المحيط الخارجي للأسوار من الجهتين الشرقية والجنوبية[٣] صناعة الفخار إلى جانب بعض مواد البناء، إذ جمعتهما المواد الأولية والطبخ في الأفران.

وبالنسبة للمواد الأولية المستعملة في صناعة الفخار فأهمها الطين بنوعيه

---

(١) نعتها ابن خلدون بالجباب وتحدث عن بنائها داخل المنازل بفاس، ورد ذلك بالعبر، ج١، ص: ٤٣٥.

(٢) الأنصاري، محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسي المراكشي، أبو عبد الله : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، تحقيق: محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، القسمان الأول والثاني، ١٩٨٤ ص: ٣٦٦.

(٣) الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص: ٤٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠.

اللمطي ذو اللون الداكن الذي يصبح مائلا إلى الحمرة عند تعريضه للشمس والنار، وغير اللمطي الذي يتخذ الفخار المصنوع منه لونا أبيضا[١]. ولعل النوع الأول محلي، والنوع الثاني كان يجلب من مناطق بعيدة عن فاس، إذ أشار ماسينون[٢] إلى أن المناطق الواقعة جنوب فاس تمتد بها جبال مزدغة الغنية بالمواد التي يصنع بها الفخار.

لقد أنتجت دور الفخارة الفاسية الأواني المستخدمة في الأشغال المنزلية كالقدور التي تطبخ فيها الأطعمة، والقصعات التي يهيء فيها عجين الخبز، والقلال والأقداح والحلابات[٣] التي توضع فيها السوائل وأواني أخرى لطبخ وحفظ وتقديم الأطعمة من خبز وحليب ولبن وزيت، إضافة إلى التي استعملت في أغراض غير منزلية مثل الجرار ذات طاقة استيعابية وصلت مائة وخمسين رطلا كان يضع فيها الزياتون الزيت للمتاجرة فيه[٤]، والآنيات التي استعملها الحرفيون والتجار في مراحل الإنتاج والتخزين والعرض.

وإضافة إلى الأواني المذكورة آنفا، صنع الفخارون أيضا القنوات المائية[٥] التي تمر منها المياه العذبة المستعملة. وقد اختلفت أحجام القنوات الفخارية المصنوعة حسب اختلاف كميات المياه العابرة لها. وكانت بعضها مكشوفة تمر في المناطق

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣.

(٢) Massignon : Le Maroc, PP : 75, 81.

(٣) ورد مصطلح الأقداح عند التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٥، الذي وصف ناحت الأقداح بالفخار، وأجاب القباب فيمن كسر آنية «الحلابة» وذلك في خطوط مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، الخزانة العامة، رقم ١٤٤٧د، الرباط، ص ص: ٢١٨، ٢٢١.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٥) عرفت أيضا بالقواديس حسب ما جاء عند الونشريسي: المعيار المعرب، ج٧، ص ص: ٥٢-٥٣.

الفارغة من البنايات وتزود الحدائق والبساتين أساسا بالماء، أو مطمورة تحت الأرض بالأزقة والدروب وتحت المباني.

ساهم حرفيو البناء والفخار في توفير المآوي للسكان وتجهيزها، وتوفير الأواني الفخارية للأنشطة التي تمت داخل المنازل. وقد لبت صناعة الفخار أيضا حاجيات التجار الذين نقلوا المصنوعات الفخارية من فاس إلى الأصقاع القريبة والبعيدة إذ انتشر استعمال أهل السودان للفخار الفاسي.

## المطلب الثاني

## تحويل الخشب والجلد

تم تحويل هاتين المادتين إلى مصنوعات كانت ضرورية في العمران. وتعد النجارة أهم فروع تحويل الخشب، زود الحرفيون بواسطتها أهل المدينة وغيرهم بما يحتاجونه من أبواب ونوافذ وألواح وأعمدة خشبية، كما نشطت حرف خشبية أخرى بفاس مثل نشارة الخشب وصنع القباب والأوعية والأمشاط. أما الصناعات التي حولت مادة الجلد، فمنها إعداد مادة الجلد بنزع الصوف منها وتطريتها، وصناعة وإصلاح ما يحتاجه الناس من النعال والخفاف التي تلبس في الأرجل، إضافة إلى صنع الدلاء الجلدية.

### ١- تحويل الخشب:

سيتم تناول الصناعات الخشبية حسب تسلسلها وهي: النشارة والنجارة وصناعة القباب والأمشاط.

- النشارة:

مارسها النشارون الذين اشتغلوا بقطع أو نشر الخشب. وهي حرفة أولية لصناعات خشبية أخرى، قام النشارون فيها بإعداد وتهييء القطع الخشبية المختلفة الأشكال والأبعاد من جذوع الأشجار التي تعتبر مادة أساسية لديهم. وقد دعيت المشاغل أو المحلات التي مورست فيها هذه الحرفة بالمناشر. والتي تموضعت

بالمداخل الرئيسية للمدينة ببابي الفتوح وعجيسة[١]، كما وجدت مناشر أخرى على ضفة وادي فاس من جهة عدوة الأندلس اشتغل فيها الأسرى المسيحيون مقابل قوتهم طيلة أيام الأسبوع باستثناء أيام الجمعة وأعياد المسلمين[٢]، مما يوحي بأن المناشر التي اشتغل فيها هؤلاء الأسرى كانت تابعة للدولة، لكن وجودها بالمدينة العتيقة قد يفسره تزويدها للمعالم الوقفية بما تحتاجه من أخشاب، في حين أن مناشر البابين الرئيسيين المذكورين استهدفت تزويد سكان المدينة بحاجياتها من الخشب، وكانت معظم الأخشاب التي تنتجها توجه إلى محلات النجارة.

واعتمد النشارون في حرفتهم على الطاقة العضلية، وعلى أداة «المناشير» المتعددة الأحجام والأشكال التي استخدمت في قطع ونشر الخشب، إضافة إلى بعض الأدوات الحادة الأخرى. وكانت الغابات المحيطة بالمدينة أو البعيدة عنها نسبيا مصدرا رئيسيا لمادة الخشب.

- النجـارة:

ذكر ابن خلدون بأن هذه الحرفة تدخل ضمن الحرف الضرورية في العمران[٣]، إذ لبت منافع أهل البادية والمدينة. لكن العمران البدوي كان لا يحتاج إلا إلى البسيط منها مقارنة مع العمران الحضري. وقد ميزها التركيب في التقنيات إلى الحد الذي تحولت أحيانا إلى حرف تلبي الكماليات.

وكان الخزاعي التلمساني قد عرَّف النجار بأنه هو صاحب النجر، وحرفته

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣؛ Massignon: Le Maroc, P: 235

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠٥.

النجارة، كما عرف النجر بأنه نحت الخشب[١]. وعن تقنيات عمل النجارة أضاف ابن خلدون أن صاحبها يحتاج إلى «تفصيل الخشب... إما بخشب أصغر منه، أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة»[٢].

وبفضل هذه التقنيات حول النجارون الخشب إلى مصنوعات مختلفة مثل الأبواب والنوافذ التي تركب بمداخل وفتحات المباني، والكراسي التي تستعمل في الجلوس، والصناديق بأحجامها المختلفة تخصص لوضع الأمتعة، التي ينقش ويزين بعضها ويرصع بالعاج[٣]،كما صنع النجارون أيضا خزانات الكتب، والعماريات[٤] أو المحفات[٥] التي تزف فيها العرائس إلى أزواجهن،والنعش أو الآلة الحدباء[٦].

ولبى النجارون بأعمالهم أيضا الحاجيات المنزلية، إذ كان النقش المحفور تقنية مميزة للأثاث المنزلي الذي استعمل بشكل محدود اعتبارا لاعتماد الناس على أنواع الأفرشة الأخرى مثل البسط والحصر والزرابي، كما صنع النجارون أيضا بعض الأواني من الخشب كالموائد التي تقدم عليها الأطعمة والرفوف التي توضع على

(١) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٧

(٣) حركات، ابراهيم: الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع٥-٦ ،١٩٧٩ص: ٥١؛ العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة : فاس وإفريقيا، ع ص: ٩٧.

(٤) العمارية بيت صغير في قياس مقعد شخص واحد مصنوع من عود تحمل فيه العروسة على رؤوس الرجال، يطاف بها عليه ليلة زفافها. العودة إلى: الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٦٧.

(٥) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٣٥.

(٦) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٠٣، وقد نعت النعش بالآلة الحدباء إشارة إلى شكله المقبب في الأعلى، خصص لحمل الموتى.

الجدران[١].

وكانت أعمال النجارين تعتمد على أنواع من الأدوات والآلات مثل المناشير في قطع وتفصيل الخشب، والمطارق في دق المسامير لتلحيم فصائل الخشب والكماشات أو اللقاقيط في قلع المسامير[٢].

وقد اجتمعت دكاكين النجارين في مركز عدوة القرويين قرب عين علو[٣]، في الحي الذي لا زال ينعت بالنجارين وتمارس فيه الحرفة نفسها. كما احتوت عدوة الأندلس على دكاكين خاصة بالنجارة.

- صناعة القباب:

تم نعت العاملين فيها بالقبابين واشتغلوا بصناعة الأوعية الخشبية ذات الأشكال الأسطوانية[٤]، التي أفادت في احتواء أنواع من المواد السائلة كالماء والزيت واللبن وغير السائلة أهمها الحبوب.

لذلك كان القبابون في حاجة إلى أنواع وكميات من الخشب إضافة إلى قطع الحديد والمسامير. واستعملوا في حرفتهم أدوات ومهارات كانت تمكن من قطع العود ونحته وطرقه إلى أن يصبح عبارة عن قباب خشبية.

وأهم مصنوعات القبابين هي الصيعان المستعملة في كيل ووزن الحبوب وما

(١) نفسه، ص ص: ٣٦، ١٢٩-١٣٥.

(٢) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٠٥؛ لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٤٨.

(٣) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, PP : 232-233.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

شابهها ، وفق النماذج التي كانت بحوزة أمين الحرفة[١]، وصنع القبابون أيضا دلاء وأسطلا[٢] تحمل فيها السوائل بالمنازل والحمامات وبعض الأنشطة الحرفية، واتسع حجم بعض الأوعية المصنوعة الحاملة للزيوت فوصل ما يعادل ثمانية وخمسين لترا [٣]. وكان الدباغون والصباغون يستعملون أوعية خشبية[٤] كوسائل في حرفتهم، يعد القبابون هم المؤهلون لصناعتها لهم.

واحتل القبابون دكاكين قريبة من السمارين في محيط الوادي الفاصل بين العدوتين من جهة عدوة القرويين[٥].

**- صناعة الأمشاط:**

الأمشاط هي أدوات ساعدت الناس في عمليات الاستحمام وغيرها واعتمد صانعوها على خشب البقس المجلوب من الريف الغربي وعلى أنواع أخرى من الخشب[٦]، حولوها إلى أمشاط بأدوات بسيطة ومهارات يدوية.

ولذلك نعت حي الذي احتضن هذه الحرفة بالمشاطين تكون من خمسة عشر دكانا تموضعت إلى الشرق من العطارين قريبا من الأبارين[٧].فحي المشاطين الموجود حاليا شرق القرويين مورست به هذه الحرفة بعد فترتي المرينيين والوطاسيين في إطار

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٤٩؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٥.

(٣) الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٥) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

(٦) Massigon : Le Maroc dans les premières années du 16 siècle, P : 83.

(٧) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٣.

التنقل الذي ميز أماكن الأحياء الحرفية مع مرور الفترات الزمنية.

ومن خلال ما تم ذكره عن الصناعات الخشبية السابقة يتضح أن أعمال النشارين كانت أساسية لدى الحرف الخشبية الضرورية الأخرى وعلى رأسها النجارة وقد ساهم ظهور الترف في تحول الحرف الخشبية إلى حرف كمالية ظهرت معها فروعا أخرى من الصناعات اعتمدت على الخشب كمادة أساسية في التصنيع.

٢- تحويل الجلد:

سيتم عرض حرف تحويل الجلد كذلك بالتسلسل والتي تضم تهييئ وتطرية الجلود، والخرازة، والسكافة، إضافة إلى صناعة الدلاء الجلدية.

- تهييئ الجلود:

يعرف أصحاب هذه الحرفة حاليا باللباطة، وكان دورهم الحرفي هو نزع الصوف أو الشعر من جلود الأغنام والأبقار والماعز، وتطريتها في أحواض الماء حتى تصبح جاهزة للتصنيع.

وكانت جلود الغنمي تعالج عن طريق نزع الأصواف منها، ثم تنظيفها. وقد اشتغل الحرفيون المختصون في معالجة هذا النوع من الجلود في مكان قريب من المجزرة الواقعة آنذاك على ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين غير بعيد عن حي الصفارين. ويقرب مكان معالجة جلود الغنمي كانت تُعدُّ جلود البقري والمعزي بتطريتها في الماء وإزالة ما بها من شعر[1]، بالاستعانة في ذلك بالمواد المساعدة في إزالة الشعر. ويتميز نوعي البقري والمعزي عن النوع الأول (الغنمي) بالجودة

(١) الوزان: ص ص: ١٩١-١٩٢، مارمول: ص: ١٥٤.

وكثرة الطلب عليها.

ويُمْكن تبرير ممارسة «اللباطة» لحرفتهم قرب الوادي بكثرة حاجتهم إلى الماء الجاري بالوادي، حيث كان ينقل في أواني خاصة بذلك تملأ به الصهاريج أو الآبار[١] التي تفرغ فيها الجلود، بعد إزالة الأصواف منها -إن كان الأمر يتعلق بنوع الغنمي- . وكان غسل الجلود بالمياه يتم عدة مرات بطريقة متسلسلة حسب تسلسل الصهاريج المعدة لذلك.

واستعان الحرفيون في تهييء الجلود بالأرجل والأيادي كما احتاجوا إلى مواد أفادتهم في إزالة الصوف والشعر من الجلود أبرزها الجير. وكانت الجلود التي تمت إزالة الصوف والشعر منها تملح حتى تحتفظ بجودتها ولا تتعفن.

- الخـرازة:

وُصفت الخرازة البسيطة الضرورية بكونها شعبية وعامة، إذ كانت مصنوعاتها موجهة لعامة الناس ذوي الإمكانيات القليلة في معظمهم. وقد صنع الخرازون الشعبيون أحذية تميزت بالتواضع والبساطة ينتعلها عامة القوم بالمدينة وسكان البوادي، ووصفت بكونها خشنة وناقصة الجودة.

واعتمد هؤلاء الخرازون في تحويل مادة الجلد والأغشية الواقية[٢] لها والخيوط التي تلحم بها، بأدوات بسيطة من قبيل الإبر والحشفات والسكاكين والأمقاص. كما كانت مهاراتهم الحرفية أيضا أساسية في صنع النعال والخفاف.

---

(١) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 223.

(٢) Massignon : Le Maroc, P : 122.

ولعل الخرازون الشعبيون كانوا مؤهلين لصناعة القرب الجلدية التي صنعت لخياطة جلد الماعز[١].

مارس الخرازون الشعبيون حرفتهم في دكاكين بأماكن متعددة من نسيج المدينة، وأهمها التي وجدت إلى جانب الإسكافيين بالطريق الغربي المتجه نحو باب الشريعة[٢]، إضافة إلى دكاكين متفرقة بالمدينة.

- السكافة:

عمل بهذه الحرفة الإسكافيون ، ولم تميز المصادر التاريخية في كثير من الحالات بينهم وبين الخرازين. لكن جلي أن ما يميز الإسكافيين هو إصلاحهم للأحذية والنعال والخفاف، مع قيامهم أحيانا بصنع بعض الأنواع ذات الأثمنة الرخيصة.

لقد اعتمد الإسكافيون في حرفتهم على أدوات وتقنيات تشبه التي استعملت من طرف الخرازين، مكنتهم من إصلاح الأحذية وصناعة الخشن منها، واحتاجوا إلى الجلد وبعض المواد الأخرى.

والحي الحرفي الواقع بالطريق الغربي الذي تمت الإشارة إلى ممارسة الخرازة به، احتضن عددا مهما من الإسكافيين، وهو معروف حاليا بحي الطرافين، احتوى على مائة وخمسين دكانا. ومارس الإسكافيون حرفتهم كذلك بمركز المدينة العتيقة، وبعدوة الأندلس التي احتوت على ثلاثين دكانا اشتغل بها الإسكافيون والخياطون[٣].

(١) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٨.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٨؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٥.

- صناعة الدلاء الجلدية:

مارس هذه الصناعة حرفيون مختصون بالطريق الغربي المؤدي إلى باب الشريعة أسفل التيالين في منطقة عين علو. واستعملت الدلاء التي كانوا يصنعونها في أغراض منزلية، إذ كانت تسقى بها المياه من الآبار [1]. لذلك فالجلد الخشن القليل الجودة كان معتمدا في صناعة هذا النوع من الدلاء والتي تتم خياطتها وتطريقها بالمسامير.

تميزت هذه الحرف التي حولت مادة الجلد ببساطة تقنياتها وقلة جودة مادتها إذ كان الجلد غير المدبوغ أو الرخيص الثمن هو المستعمل في التحويل.

من خلال ما ورد، يستنتج تعدد الحرف الضرورية البسيطة، وتنوع أصنافها، وقد لبت مصنوعاتها حاجيات سكان مدينة فاس ومحيطها. وسيتم في الفصل الموالي تناول حرف وصناعات كمالية مركبة كان قيامها على أساس البسيط والضروري من الحرف، حولتها أفكار الصناع والحرفيين إلى مركبة بتطوير تقنياتها والاهتمام بالإبداع في صناعتها تلبية للترف والغنى الذي ميز فئات داخل فاس وفي مناطق ومدن قريبة وبعيدة عنها. إن الحرف والصناعات البسيطة مكنت من تلبية حاجيات سكان مدينة فاس والبادية القريبة منها أساسا. وكانت عدة حرف من هذا الصنف تقدم منتوجاتها أيضا للعاملين في المركب والكمالي من الأعمال الحرفية.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

# الفصل الثاني

## الحرف والصنائع الكمالية المركبة

المبحث الأول: زخرفة المباني والفخار

المبحث الثاني: صناعات النسيج والملبوسات وتحويل الجلود

المبحث الثالث: صناعة المعادن والأسلحة

المبحث الرابع: الصناعات الشريفة

يتصف هذا القسم من الحرف والصنائع بأنه يُطلَب مع الكماليات ودواعي الترف التي تشهدها المدينة عندما يستبحر عمرانها. وقد ميز التركيب أيضا هذا القسم من الحرف مثل ما ميز حرف وصناعات مخزنية ووقفية، اعتبارا لكون التأنق فيها واستجادتها كان الغاية والهدف[1]. وقد كان للفكر دور في استنباط الحرف الكمالية المركبة من الحرف الضرورية البسيطة، إذ أن التسلسل والترابط وثيقا بينهما.

تنقسم الحرف والصناعات الكمالية المركبة إلى مجموعة من الفروع سيتم تناول كل واحد في مبحث خاص، جمعتها مظاهر الإبداع والتجديد في صنعها بالتقنيات التي استهدفت إبراز تميزها، وقد أنجزت تلك الإبداعات بفضل التنوع والدقة في الأدوات والمواد، إضافة إلى ارتفاع قيمة المصنوعات، وأهمية مواقع الأسواق، وإقبال فئات معينة من الناس عليها من ساكنة المدينة الذين نشطوا تصديرها إلى البلدان الخارجية.

(١) يستنتج هذا الكلام من آراء ابن خلدون تمت الإشارة إليها في تقديم هذا الباب في ص: ١٥.

## المبحث الأول

### زخرفة المباني والفخار

أبدعت أيادي الصانعين بالبنايات الخاصة، بالشكل الذي كان يضاهي ماميز البنايات الوقفية والسلطانية. وكان للتصاميم دور في إبداء التأنق والجمالية في البناء، إضافة إلى فرش الأرض والجدران بالزليج والرخام والجبص، وإظهار الزخارف الخشبية بمواضع مختلفة بالمباني.

وقد طبعت مظاهر التأنق والجمالية أيضا أعمال تحويل الحرفيين للأواني الفخارية إلى خزف باستعمال الأصباغ، التي طليت بها في أشكال هندسية ونباتية تعددت وتداخلت فيها الألوان.

واحتضنت مدينة فاس دُورا لصناعة الزجاج يبدو أن تقنياتها كانت تحاكي تقنيات الخزافين. واعتبرت المعالم العمرانية أهم المواقع التي استهلكت مادة الزجاج المصنوعة.

## المطلب الأول

## زخرفة المباني

تجسدها التصاميم التي كانت تشيد على أساسها البنايات وهي من اختصاص البنائين، كما تجسدها أيضا أشغال البناء التي دعى إليها الترف كفرش الرخام والزليج، ونقش ورقش الجبص والزخارف الخشبية بالأبواب والنوافذ والسقوف والحيطان والشرفات.

### ١- التخطيط والهندسة:

كان البناؤون [١] قبل شروعهم في أعمال البناء يُعِدّون التصاميم التي استفادوا فيها من منجزات سابقيهم من خلال البنايات التي كانت قائمة منذ تأسيس مدينة فاس، وكانوا ينهلون من الخصوصيات التي ميزت العمارة الإسلامية.

وقد تكونت تصاميم البنايات المرينية والوطاسية من عدة عناصر تمثلها المداخل والصحون والغرف والأروقة وغيرها. فالمداخل منكسرة ذات عطف واحد [٢] يحفظ حرمة الآوين داخل المبنى أما الصحن الذي يتوسط البناية فهو شكل فناء مكشوف [٣] تنفتح حوله الغرف والأروقة، ومعظم الصحون ذات أشكال مستطيلة أو مربعة تتوسطها خصات أو نافورات ماء، ويحتوي بعضها على سقايات في إحدى جهاتها،

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣١، الذي أشار إلى إنجاز البنائين للتصاميم.

(٢) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص: ١٧١؛ معلمة المغرب، م٣، ص: ٩٤٦.

(٣) وزيري: المرجع السابق، ص: ١٧١.

جهاتها، ودور هذه الصحون توفير التشميس والتهوية والارتباط بالفضاء الخارجي[١]. وتحتوي الدور على عناصر أخرى ثانوية كالمطابخ وبيوت الطهارة والسلاليم الرابطة بين الطوابق والمنافع الأخرى التي تكثر كلما كبرت مساحات المباني.

لقد تكونت معظم دور فاس من طابقين انسجاما مع دعوة الشرع الإسلامي إلى تجنب العلو في البنيان[٢]، ومكن ذلك من تناسق النسيج المعماري للمدينة. وحصل هذا التناسق داخل الدور أيضا التي وُصفت بأنها مجالس متقابلة [٣]، فكان الطابق السفلي منها مخصصا لاستقبال الضيوف بغرفة دُعيت بالإيوان[٤]أو القُبَّة في إشارة إلى جمالية القبات التي تزين سقوف الغرف الرئيسية، إذ ضمت الدور الكبرى قبتان فأكثر[٥].

وتتميز واجهات الصحون الأربع بامتداد الجدران عليها وانتصاب الأعمدة في الطابق السفلي، والأروقة أو الرفارف[٦] في الطابق العلوي. وتكون هذه الأروقة مسقوفة تفصل الصحون عن الغرف، وتنتهي في أطرافها بالمشربيات التي هي عبارة

---

(١) نفسه، ص ص: ١٢٣-١٢٤.

(٢) من بين ماجسد هذه الدعوة حديث شريف أجاب فيه رسول الله (ص) السائل عن أشراط (علامات) الساعة من ضمن ماأجابه به «...وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان ...» حديث رقم ٥٠، ج ١، ص ٣٢ ، صحيح البخاري ، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت ،١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) وزيري: المرجع السابق، ص: ١٧٢.

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) نفسه.

عن شبابيك خشبية تصل الأعمدة وتسهم في الإضاءة والتهوية والزخرفة[١]. وتنتهي واجهات الصحون في الأعلى بحلقة يمكن للناظر منها من السطح أن يشاهد أرضية الصحن وواجهته. وتنفتح الغرف على الصحون بأبواب ونوافذ يضيق شكلها من الداخل ويتسع من الخارج[٢].

وترتبط طوابق البنايات بالسلاليم التي تحتل إحدى الأركان، وتتسم بالرتابة التي تكسرها أشكال الأدراج الموجودة في المنعطفات وتتسع السلاليم لمرور الأشخاص والأمتعة، ويمكن لعابرها أن ينتقل بين الطابق السفلي وسطح البناية.

وعلى عكس الواجهات الداخلية ميزت البساطة الواجهات الخارجية للبنايات، إذ قلت وكادت تنعدم الفتحات فيها، وإن وجدت فهي كوات صغيرة[٣] تفيد في التهوية بالشكل الذي يضفي حرمة المنازل.

أفادت هذه التصاميم في إبراز إبداعات الحرفيين وزخارفهم فأفرغوا طاقاتهم في المواضع البارزة للعيان وداخل البنايات. وكانت واجهات الصحون والغرف التي يجلس بها الضيوف مميزة في زخارفها عن العناصر الأخرى من البنايات.

٢- فرش الزليج:

إن فرش هذه المادة بالبنايات جعلت المحترفين بها يلقبون بالفراشين، حيث يقومون بتغطية أرضيات المباني وأسفل الجدران ومواضع أخرى، بقطع الزليج المصبوغة المتعددة الألوان أو غير المصبوغة التي تحمل حمرة نتيجة ما تعرضت له من

(١) وزيري: المرجع السابق، ص ص: ١٢٤-١٢٧.

(٢) نفسه، ص: ١٢٣.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٩١.

طبخ في الأفران.

وكانت صناعة الزليج من الصناعات التي يفتخر أهل فاس بممارستها[١]، وقد تميزت فترة بني مرين باستعمال قطع الزليج[٢] في فرش أرضيات البنايات وأجزاء من جدرانها. وأعطى التداخل والانسجام بين الألوان جمالية للأماكن المفروشة. وتكونت هذه الألوان من الأصباغ التي كانت تُدهن بها قطع الزليج، حيث تمثلت في «الأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما يركب من هذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلي»[٣]، ودهن هذه الأصباغ الملونة كان من مهام اللواجريين[٤] الذين سبقت الإشارة إلى صناعاتهم للآجر وقطع الزليج. أما مهام الزلايجيين فتمثلت في فرش القطع وتشكيل الزخارف بها، بواسطة الأشكال الهندسية كالمربعات والمثلثات والمثمنات والدوائر وأنصافها وغير ذلك،وكانت الزخارف النباتية والكتابات الأدبية في تلك القطع تكاد تغيب لعدم تناسبها مع الزليج ومع البنايات الخاصة.

كان الزلايجية قبل شروعهم في فرش الأرض والجدران يقومون بتسويتها ، وقياس درجات الانحدار والاستواء بأداة «ميزان الماء»، وبعد ذلك يهيئون خليطا تدخل فيه مواد الجير والصخور والماء له دور في تثبيت القطع على الأرضيات المعدة للفرش، مستعملين مهاراتهم الحرفية في تشكيل القطع وإعداد اللوحات الزخرفية فيها، مستعينين بالأدوات والآلات اللازمة لذلك التي يستعمل البعض منها من طرف البنائين. يتدرج الزلايجي أثناء عمليات الفرش من وسط المجال الذي يتم

---

(١) ابن سودة، عبد السلام: أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس، دعوة الحق، العدد١-٢، ١٩٧١، ص ص: ١٠٧-١٠٨.

(٢) توري، عبد العزيز: العمارة المرينية، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٧٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) ورد ذلك في حرفة «عمل الآجر والزليج» بالمبحث الخامس من الفصل السابق « من الباب الثاني .

فرشه إلى أطرافه التي تنتهي بأحزمة بارزة في أسفل الجدران وفي الشريط الذي يفصل الزليج عن الزخارف الجصية بالجدران.

٣- عمل الرخام:

حرفة العاملين فيها هي وضع أحجار الرخام في ذات الأماكن التي تفرش بالزليج. وقد أسهم ارتفاع أسعار مادة الرخام ونذرتها بفاس[١] في قلة استعمالها في فرش البنايات الخاصة، عدا تلك التي امتلكها أفراد ذوو إمكانيات مالية تسمح لهم بذلك، إذ كانت منازلهم تحاكي القصور.

كانت مداخل الأبواب وممرات الحدائق وأماكن من الصحون خاصة الوسطى منها، التي توضع فيها الصهاريج أو الخصات والأعمدة وغيرها هي المجالات التي اشتغل فيها الرخاميون.

ويشرع الرخايمي في عمله بقطع الأحجار وتهيئتها وصقلها قبل وضعها على المجال المعد للفرش. وهي تقنيات يميزها التركيب خاصة حين يتطلب الأمر صناعة أحواض مجوفة تتجمع داخلها المياه. وقد اعتمدت هذه الصنعة على أدوات تمكن من القيام بالخرط والخرم والصقل[٢]. كما أدمجت مادة الرخام مع الزليج في فرش المباني وهو ما أعطى لوحات منسجمة وجميلة ساهم فيها التداخل بين اللون الأبيض للرخام والأزرق الكحلي للزليج.

---

(١) Massignon : Le Maroc dans les premières années à la 16ème siècle, P : 75.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٥.

٤- نقش الجبص:

هي حرفة استهدفت تزيين البنايات بمادة الجبص. وتقنيات هذه الحرفة تحاكي تلك التي أنجزت بقصور السلاطين والبنايات التابعة للأحباس مثل المساجد والمدارس، لكن الاختلاف بينهما يكمن في المضمون، فقد اقتصرت الزخارف الجبصية بالمباني المدنية على التوريق النباتي والنقش الهندسي[١]، وقلت فيها الكتابات أو كادت تنعدم بحكم الخصوصية التي ميزت هذا النوع من المباني فهي ليست وقفية حتى تحمل كتابات دينية وليست سلطانية حتى تحمل كتابات سياسية.

لقد قام الجباصون بأعمال زخرفية في المباني الخاصة، إذ أسهموا بإبداعاتهم على واجهات الصحون وحواشي الأبواب والنوافذ وسقوف الغرف. وكان عملهم يبتدئ بعد فراغ البنائين من إنشاء الجدران، والزلايجيين والرخامين من فرش الأرض وما يليها في أسفل الجدران.

لقد اتسم عمل الجباصين بإنجاز الأقواس والحنايا والمقربصات بالمباني معتمدين على النقش والتوريق[٢].

٥- العمل على الخشب:

تمثل هذا العمل في النقش والدهن والتشكيل . وقد شغل الخشب مواضع مختلفة من المباني استغلت فيها هذه المادة بازدواجية إذ كانت تشكل جزءا من البناء

(١) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥، بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٨٧.

(٢) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج١، ص: ١١٦؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، الصفحتان نفسهما.

ولوحات زخرفية تزين البنايات في آن واحد. فقد نقشت الأبواب والنوافذ المصنوعة من الخشب ودهنت[١] أخشاب السقوف بالأصباغ التي زينتها، واحتوت الغرف الرئيسية على القباب المنقوشة والمصبوغة. كما كانت الواجهات العليا للصحون تغطيها لوحات الأخشاب التي وضعت لتكمل الرونق مع زخارف الزليج والرخام والجبص، وكانت هذه اللوحات بحكم بعدها عن أعين الناظر تغطيها الأدهان وتزينها النقوش.

وتبقى المشربيات أهم الزخارف الخشبية، وقد صنعت بفضل الخراطين الذين اشتهرت مدينة فاس بأعمالهم[٢]. فقد ذكر ابن خلدون أن صناعة الخرط تتمثل في تهيئة قطع الخشب «ليحكم بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر فتبدو لمرأى العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب»[٣]. وقد اشتغل الخراطون بدكاكينهم شرق العطارين بزقاق رحبة القيس ودكاكين متفرقة على أحياء المدينة[٤]، لكن أعمال الخراطين احتاجت إلى إتمام صنعتها من لدن النجارين الذين كانوا يلحمون المخروطات ويضمونها إلى بعضها حتى تتحول إلى شبابيك، وساهمت أعمال كلا الحرفتين المذكورتين في تزويد البنايات بالمشربيات بعد دهنها وإنهاء الاشتغال عليها فيتم تركيبها من طرف البنائين.

وإذا كانت الأدوات التي استعملها النجارون في تلحيم الدساتر معلومة لا تتعدى المطارق والمسامير، فإن الأدوات التي اعتمدت في خرط عناصر المشربيات

---

(١) وردت حرفة الدهانين عند ابن مرزوق: المسند، ص: ٤٤٨؛ وأدخلها ابن خلدون ضمن الحرف التي تتجه إلى الكماليات، المقدمة، ص: ٤٠١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٧.

(٤) الوزان وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٣.

تمثلت في آلة الخرط التي هي عبارة عن لوحة خشبية كبيرة تُمد بشكل أفقي فوق الأرض ولوحتان عموديتان إحداهما ثابتة والأخرى متحركة، ويمتد بين اللوحتين العموديتين محوران حديديان يثبتان القطعة الخشبية المراد خرطها. لكن المهارة الحرفية للخراط كانت أساسية في عمله إذ يقعُد حول الآلة التي تثبت فيها القطعة المعدة للخرط ويشتغل باستعمال يديه ورجله اليمنى، فيقبض بيده اليمنى المثقب الذي يتدلى منه خيط فيحركه، ويدير ويقرب الآلة القاطعة المثبتة في الأداة باليد اليسرى والرجل اليمنى، مما يمكنه من خرط الأشكال المطلوبة[1]. وكانت هذه الطريقة ولا زالت معتمدة لدى خراطي فاس.

واحتاجت البنايات المدنية لكميات كبيرة من المشربيات التي اختلفت أشكالها وأحجامها ووضعت أساسا في الشرفات وأعلى الأبواب والنوافذ وغيرها.

لقد أضفت هذه الزخارف المتنوعة، وما ميزها من انسجام وتناسق في إظهار التأنق والاستجادة في إنجاز المباني بفاس.

(١) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، ج٣، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٩، ص: ٢٣٩.

## المطلب الثاني

## صناعة الخزف والزجاج

عبَّرت صناعة الخزف عن تأنق سكان فاس وميلهم إلى استعمال أواني تستجيب لمظاهر الكمال والغنى. ومورست بالمدينة صناعة الزجاج الذي وجه إلى تزيين المعالم العمرانية.

### ١- صناعة الخزف:

عرفت دور الفخارة بفاس تحويل أنواع من الأواني الفخارية إلى خزفية وذلك عن طريق زخرفتها بالأصباغ ذات الألوان المتعددة، التي استُخلصت من المواد الطبيعية بطرق كيميائية كان الخزافون على دراية بها. ورسمت بالأصباغ أشكال هندسية وتوريقات نباتية على أوجه الأواني الفخارية.

وقد ساهمت التقنيات الأندلسية في إغناء صناعة الخزف بفاس، سواء بتقليد الحرفيين المحليين لها، أو بممارسة الأندلسيين المتوافدين على المِصْر لها. فقد أشار الوزان إلى أن الخزف المايورقي ذو الجودة العالية كان يعرض بأسواق فاس[1]، وهو إما كان مجلوبا من بلاد الأندلس أو مصنوعا على الطريقة الأندلسية. وكيفما كان الحال فإن تأثر صناعة الخزف الفاسي بنظيرتها الأندلسية يعتبر أمرا حاصلا.

احتاجت حرفة الخزافين لآنيات الفخار التي كانت متوفرة بمعامل الفخار الفاسية وللأصباغ. واستعمل المشتغلون بها أدوات مثل الأقلام والريشات التي تتم

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

بها عمليات طلي الدهان، فضلا عن آنيات بسيطة كانت تعد وتخلط وتوضع فيها الأصباغ.

٢- صناعة الزجاج:

عرفت مدينة فاس هذه الصنعة في الفترة الموحدية، إذ كانت المدينة تحتوي على إحدى عشر دارا لعمل الزجاج[١]. وتواصلت صناعة الزجاج بها في الفترة المرينية الوطاسية، إذ كانت دور العمل الخاصة بالزجاج تقع إلى جانب دور عمل الآجر خارج أسوار القسم العتيق من المدينة[٢] وهو ما يعد دليلا على تداخل عمليات صنع المادتين، اعتبارا لاعتماد الزجاج عند تصنيعه على الصخور والأصباغ والطبخ داخل الأفران. وذكر مارمول أن نسيج المدينة العتيق ضم مائة دكان للزجاجين[٣]، من الراجح أن دورها كان تجاري أكثر منه صناعي، وذلك بعرض المنتوجات الزجاجية المصنوعة محليا أو المستوردة من أوربا التي أصبحت مع تقدم العقود تعد منافسا قويا للصناعات الفاسية ومنها صناعة الزجاج[٤]. ومن غير المستبعد أن تكون دكاكين الزجاج المشار إليها مختصة أيضا في تحويل الأحجار[٥] الصلبة والصخور البلورية إلى مصنوعات عبارة عن نظم زجاجية وخرز وحلي كانت تعرض في الأصقاع البعيدة

(١) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٥.

(٣) نفسه، ص: ١٥١.

(٤) نشاط، مصطفى: ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب و ع إ، عين الشق، البيضاء، ج٢، ١٩٨٩، ص: ٦٢.

(٥) بنعبد الله: معطيات، ج٢، ص: ٨٢.

مثل بلاد السودان[١]. ولعل هذا تزامن مع تخصص اليهود في صناعة الزجاج بعد عزلهم عن الصياغة[٢]، وهم كانوا على دراية بتقنيات صنع هذه الأنواع من المصنوعات الزجاجية.

وأما الأنواع الزجاجية الأخرى، فلبت حاجيات المعالم العمرانية بوضع الزجاج الملون العراقي في النوافذ والفتحات التي عرفت بالشمسيات، إضافة إلى الزجاج العاكس للصورة المعروف بالمرايا[٣].

لقد عبرت الزخارف التي احتضنتها المباني الخاصة عن غنى العمارة المرينية الوطاسية، واستجابة صناعة الخزف والزجاج لحاجيات المجتمع الفاسي ولرغبات التجار الذين سوقوا بعض المصنوعات خارج فاس. وإذا كانت العمارة قد استمرت في تطورها وغناها، فإن صناعة الخزف والزجاج أصبحت تواجه منافسة قوية مصدرها الضفة الأوربية بمسلميها ومسيحييها.

(١) حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، ٢٢٧٤.

(٢) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٠.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص: ٢٨؛ النميري: فيض العباب، ص: ٢٠٦؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ١٧١؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ١٨٩.

# المبحث الثاني

## صناعات النسيج والملبوسات وتحويل الجلود

سيتم في هذا المبحث عرض تقنيات صناعة المنسوجات الفاخرة وما يتبعها من أعمال خياطة الملابس والأفرشة والأغطية. ويلي بعد ذلك التطرق للحرف المركبة التي تم بها تحويل الجلود إلى مصنوعات، إذ تعد الدباغة أساسية بالنسبة للصناعات الجلدية. وما يوحد حرف هذا المبحث هو صناعة ما يلبسه الإنسان وما يحفظ به جسمه.

## المطلب الأول

## صناعات النسيج والملبوسات

نزع الناس إلى التأنق في اتخاذ ما ينسج من أثواب وأغطية وكانت دُور الحياكة مكانا لصنع المنسوجات الفاخرة التي دعى إليها الترف، في حين احتضنت دكاكين الخياطين صناعة الملابس المرتفعة القيمة أبدعت فيها المهارات الحرفية. لكن الحياكة والخياطة لم تكونا الحرفتين القادرتين على توفير حاجيات الناس من المصنوعات المشار إليها، بل أسَّست لها وتَلَتْهَا حرف أخرى، سيتم تناولها لاحقا حسب تسلسلها.

### ١- قصر الخيوط:

عمل بهذه الحرفة القصارون الذين تمثلت مهامهم في قصر خيوط الحرير وأنواع من خيوط الصوف، وذلك بدقها وضربها وهي موضوعة في محلول منظف بالشكل الذي يساعد في تقلص وتلبد تلك الخيوط حتى تكون عمليات نسجها سهلة[1].

واحتاجت عمليات القصر هاته للمياه، وهو ما يفسر تجمّع القصارين على مجاري وادي فاس خارج باب الشريعة في اتجاه فاس الجديد، لكن بعض القصارين مارسوا حرفتهم على الوادي الفاصل بين عدوتي القرويين والأندلس أسفل المدينة العتيقة. ومجملا تم إحصاء مائة وخمسين معملا لقصر الخيوط بفاس في مروج مائية

(١) هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة: فؤاد باشا أحمد، عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، هامش، ص: ١٥١.

احتوت على مراجل وجفان تمت فيها عمليات طبخ الخيوط[١]. ومن خلال ذلك يتجلى بأن المراجل هي بيوت النار التي توضع فوقها الجفان المملوءة بالمياه المغمورة بالخيوط التي تطبخ فيها، وقد ساعدت مادة الرماد في الطبخ، حيث كانت تخلط مع المياه عند الطبخ، و حصل القصارون على هذه المادة بالطواف في المدينة وجمعها من السكان مقابل المكانس[٢].

لذلك اعتمدت عمليات قصر الخيوط على عمليات الضرب والطبخ، ولعل طبيعة الخيوط كانت تفترض عملية من العمليتين أو كلاهما. والراجح أن خيوط الصوف كانت تحتاج إلى الضرب في حين تحتاج خيوط الحرير إلى الطبخ.

لقد عرف العالم الإسلامي انتشار طواحين قصارة[٣] تم تشغيلها بطريقة آلية باستغلال طاقة المياه التي كانت تحرك الأحجار. وهو ما كان مساعدا في عمليات الضرب على الخيوط وقصرها. لكن الإشارات التي تدل على استعمال هذه التقنيات بفاس تظل غائبة في الكتابات المتوفرة.

2- الصباغة:

اختص محترفوها في صباغة خيوط الحرير ومواد القطن والصوف وأحيانا بعض المنسوجات والملبوسات. وكانت الصباغة التي يعتمدونها تستخلص من مواد نباتية ومعدنية[٤]. ويشرع الصباغون في عملهم بوضع مواد الصباغة في الماء بمقادير

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣

(٢) نفسه.

(٣) هيل: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) مطلوب، أحمد: معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص: ١٧؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٩.

معلومة. ويتميز عملهم بتقنيات ووسائل تُمكن من تلوين الخيوط أو غيرها بعد وضعها في خليط الصباغة[١]. وكانت خيوط الحرير الموجهة للصبغ تجمع في وحدات تسمى الربطات[٢] تتيح سهولة صبغها من جهة، وقياس الكميات المصبوغة منها من جهة ثانية، في إطار العلاقة التي كانت تجمع الصباغين مع الحرارين، إذ كان الحرارون يدفعون مادة الحرير للصباغة، وإضافة إلى خيوط الحرير كان الصباغون يلونون أيضا بعض الأثواب والمنسوجات، لكن كميات هذه الأخيرة كانت قليلة.

كانت دكاكين الصباغين ولا زالت متموضعة بعدوة القرويين على ضفة وادي فاس بين قنطرتي باب السلسلة (قنطرة الطرافين حاليا) والصباغين أو جسر ابن زكون[٣]. وتوفُّر مادة الماء في الوادي يبرر تواجد الصباغين هناك، رغم أن هذا الحي الحرفي كان مزودا بصهريج جميل تتدفق فيه المياه[٤]، لكنه لم يغن الصباغين عن استغلال مياه النهر أيضا.

ولعل الصباغين استعملوا أيضا النار كوسيلة صناعية، إذ احتاجت بعض الأنواع من الصباغة إلى حرارة مرتفعة للمياه كي تصبغ بها الخيوط، وهو الأمر الذي يبرر كذلك مكان الصباغين، حيث تتوفر دكاكينهم على مكان وقد النار.

واستعمل الصباغون في صنعتهم آنيات بعضها من الحجم الكبير مصنوع من

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص: ٣٢٣.
(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤.
(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢.

الخشب[١]، وبعضها أقل حجما مصنوع من الخشب أو من مواد أخرى كالأسطل والدلاء وغيرها.

وكانت الأمانة مشروطة في ممارسة حرفة الصباغة، نظرا لخطر الغش فيها مثل استعمال مواد غير مشروعة في الحصول على الصباغة[٢].

وقد تعرض سوق الصباغين لحريق سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٦م فتم تجديده بأمر من السلطان أبي سعيد عثمان[٣]، قصد سير العمل به وتحقيقه لحاجيات الناس إليه.

### ٣- عمل الحرير:

تنسب هذه الحرفة لمادة الحرير التي تعد أولية في عمليات النسج بأطرزة خاصة لذلك. وكان الحرارون يتسلمون مادة الحرير من الصباغين، أو من الدكاكين التي كانت تبيعه بالقيصارية[٤]. وتتميز تقنيات نسج هذه المادة بالتطور نظرا لتعدد الألوان المستعملة في النسج ودمج الخيوط الذهبية معها أحيانا[٥].

---

(١) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢)- النويري ،أحمد بن عبد الوهاب ، شهاب الدين : نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاؤه، القاهرة، دون تاريخ، ج٦،ص: ٣١١؛ ابن هلال السجلماسي، إبراهيم: الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، نسخة مصورة بمكتبة آل سعود بالدار البيضاء، تحت رقم 031 حـ ، ص: ٣.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٥) وردت فتاوى تنهى عن اتخاذ الأثواب المصنوعة من الحرير والذهب مما يدل على صنعها بفاس،العودة إلى ابن هلال: الدر النثير، ص: ٣، الونشريسي: المعيار، ج١، ص ص: ٣٤٤-٣٤٥.

وقد صنع الحرارون منسوجات فاخرة موجهة أساسا للنساء، مثل السباني وهي أغطية الرؤوس التي تتزين بها المرأة، والزردخاني وهو بمثابة منسوج خاص بالعرائس فضلا عن الأثواب التي تخاط بها ملابس وأحزمة النساء[١].

وكان عدد الأطرزة الخاصة بنسج الأثواب الحريرية قليل، وخاصة الأثواب التي كانت تقنيات صنعها متطورة مثل أطرزة الزردخاني الذي كان يصنع في أطرزة خاصة، وهذا النوع من النسيج لازال يحاك بطراز بحومة وادي الزحون متخصص في صنع هذا النوع من المنسوجات.

٤- عمل العقد:

تعنى هذه الحرفة بصناعة العقد التي يزخرف بها الخياطون الملابس، وتعرف أيضا بالأزرار أو البلوطات. وكانت تعد من خيوط الحرير[٢]، و لها دور تزييني للملابس. وكانت للعقادين دكاكين قليلة وسط المدينة غرب سوق الشماعين[٣]، يستنتج من المعلومات التي جاءت في كتاب «وصف إفريقيا» أنها التي تقع على الداخل إلى القطانين بعد عبوره لحي الشماعين أو الشراطين. والراجح أن العمل الذي مارسه العقادون هو تكليف النساء المحترفات بصناعة العقد في المنازل مقابل أجر معلوم، ثم تسلمها منهن وعرضها للبيع بدكاكينهم. ولازالت هذه الحرفة شائعة في أوساط النساء بفاس.

---

(١)- J. La panne – Joinville : Les métiers à tisser de Fès, Hespéris,Tome 27, P : 23 , 1949.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٠.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٤.

٥- صناعة الضفائر:

كان للضفائر أيضا دور في تزيين ملبوسات النساء أيضا، بخياطتها على أطراف وحواشي الأثواب التي تكون بادية للعيان وتدعى الضفائر بالجدائل أو القيطان، يتم صنعها بتجديل وفتل خيوط الحرير مرات متوالية بطريقة يدوية من طرف مستخدمين لدى الخياطين أو العقادين، إذ كان هؤلاء الأخيرين يوفرون الضفائر للخياطين[1].

٦- طرز الأثواب:

الطرز هو وضع أشكال هندسية أو نباتية أو غيرها فوق الأثواب، عن طريق تعليمها وخياطتها بالحرير أو أنواع من الخيوط الأخرى. وقد اختصت حرفيات في هذه الصنعة، كن يقمن بطرز الأشكال على أثواب القمصان وأغطية رؤوس النساء والرسائد[2] وبعض المفروشات والأغطية ونطاقات النساء.

وقد تعاملت الطَّرازات مع الخياطين أو مع الزبناء مباشرة، إذ كن تقبضن الأثواب التي ستشتغلن عليها، مع تحديد الأجر الذي سيدفعه لهن الخياط، ونوع الطرز الذي ستقمن به، ملتمزمات بتوفير الخيط والإبر والمرمات التي تعد أهم وسائل التطريز، فترسمن أشكالا معينة على الثوب ثم تطرزن الخيط ذو الألوان المناسبة عليه بالمهارات الحرفية.

(١) نفسه، ص: ١٨٩؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩.

(٢) حركات، ابراهيم: الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٩٧٨، عدد ٣-٤، ص: ١٣٥.

٧- صناعة نطاقات النساء:

عُرف أصحابها أيضا بالمجادلية[١] أو المضايمية، إذ صنعوا أنواعا من المجادل التي تحاكي في تقنيات ومواد صنعها الجدائل، حيث كانت تفتل أو تجدل خيوط الحرير بمهارات يدوية وتوضع لها المقابض فتصبح أحزمة تتمنطق بها النساء. وتميزت بعض أنواع النطاقات المصنوعة بأن لباسها يُعد مظاهر الفخر، فصُنعت عريضة واحتوت واجهتها الخارجية على ثوب مطرز في أشكال متعددة أبرزها المعروف بـ«طرز النطع» الدال على اللون الأصفر[٢] تتكون مادته من خيوط الصقلي وتدمج معه أحيانا خيوط من الذهب.

٨- صناعة القلنسوات:

القلنسوة هي غطاء رؤوس الرجال. وقد ورد كلام بكتاب «بيوتات فاس» فيه إشارات إلى تقنيات صنعها، إذ ذكر صاحبه قيام صانعيها بعمليات التبطين والصبغ والتصفيف[٣]. وذلك ما يتيح التعرف على مواد صناعتها، التي تكونت من ثوب سميك يكون في واجهتها الخارجية يغطيه ثوب خفيف أو تبطين من الداخل. أما صبغ القلنسوات فهو دليل على تعدد ألوانها، ولعل الصباغة كانت تتم قبل خياطة القلنسوات ، وبعد الخياطة يقوم صانعوها بتحديقها حتى تصبح جاهزة للبيع للزبناء.

وتعرف القلنسوات أيضا بالطرابيش أو الطاقيات، ولازالت بعض المحلات

---

(١) Massignon : Enquête sur les corporations, 1923-1924, P : 191.

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص: ٤٦.

(٣) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

تصنعها بالمدينة بزقاق البراطليين المؤدي إلى الشراطين.

### ٩- الخياطة:

إن دكاكين الخياطة التي تم التعرض لها عند الحديث عن الحرف الضرورية البسيطة[١] هي التي اختصت في تحويل الأثواب الفاخرة المصنوعة من مواد كانت لها قيمتها في المجتمع الفاسي إلى ملابس. ولا يختلف هذا النوع من الخياطة في التقنيات عن الخياطة البسيطة، إلا في الإضافات التي هدفت إلى إظهار التأنق. فالملابس الفاخرة المخيطة احتوت على عقد وجدائل وأشكال مطرزة. كما أن المهارات اليدوية تكون متفوقة عن التي تستعمل في الخياطة العادية البسيطة. لكن الخياطين أنفسهم هم من كان يمارس نوعي الخياطة المشار إليهما. وتميل النساء إلى البحث عن المهرة منهم لدفع الأثواب التي تردن أن تخاط بتقنيات جيدة.

### ١٠- صناعة الأفرشة والأغطية:

دعت أحوال الترف والدعة إلى استعمال الناس لأفرشة وأغطية صنعت من الأثواب الفاخرة، وبتقنيات الخياطة التي لحمت أطراف تلك الأثواب. وقد ساهم الحاكة والطرازات في توفير الأثواب التي صنعت منها الأفرشة والأغطية، التي استدعت اختصاص حرفيين مختصين في خياطتها. وبعد إتمام صنعتها يقوم أصحابها بحشو أثواب بعض أنواع الأفرشة بمواد الصوف أو القطن أو الكتان. ومن الأفرشة التي صنعت بفاس الزرابي والقطائف والطنافس واللحف والمساند والوسائد إضافة إلى أنواع أخرى من الأغطية[٢].

---

(١) الرجوع لحرفة الخياطة بالمبحث الثالث من الفصل السابق

(٢) النميري: فيض العباب، ص: ٢١٣؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٣٠٩؛

وبذلك لبت صناعات النسيج والألبسة حاجيات الناس الذين مالوا إلى طلب الكماليات في هذا الصنف من الحرف، الذي أبدع فيه الحرفيون بالتقنيات الطالبة للتركيب قصد إظهار مظاهر الحسن والتألق في التصنيع.

---

المقري: أزهار الرياض، ج١، ص:١٤٣.

## المطلب الثاني

## تحويل الجلود

مثلت الدباغة أساسا للصناعات الجلدية، إذ بواسطتها تم تحسين جودة الجلود المستعملة في عدة حرف كمواد أولية في التصنيع، سواء التي سيتم التعرض لها في هذا المطلب مثل الخرازة وصناعة أكياس النقود، أو التي سيتم تناولها عند التعرض لصناعة الأسلحة وبعض الصناعات المرتبطة بالفكر والعلم أو غيرها.

### ١- الدباغة:

صنفها ابن خلدون بكونها أهم فرع من فروع الصناعات الجلدية[1]. ومن خصائصها استعمال مواد معينة تعرف بالدباغ في تهييء الجلد بتقنيات مركبة وعبر مراحل متسلسلة إلى أن يصبح الجلد مدبوغا وجاهزا للاستعمال في صناعات أخرى.

واشتغل الدباغون بتحويل مختلف أنواع الجلد من بقر وماعز وغنم وإبل، لكن النوعين الأولين تميزا بتركيب تقنيات دبغهما، في حين كانت دباغة الغنم سهلة، أما النوع الأخير فكمياته المدبوغة كانت قليلة.

ومرت الدباغة بعدة مراحل، لذا سيتم تناول كل مرحلة على حدة، مع الاعتماد أحيانا على كتابات متأخرة عن الفترة التاريخية المدروسة سدا للفراغ إن وجد، واعتبارا للتشابه في التقنيات رغم التأخر الزمني.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

- التنظيف الأولي:

مثلت عمليات تنظيف الجلود أولى مراحل الدباغة. وقد كانت الجلود التي تحمل إلى دار الدباغة تفرغ في البداية بأحواض مملوءة بالمياه المستعملة، بالنسبة لنوعي البقري والمعزي، اللذين يتطلبان مكوثا طويلا في أحواض الماء تتراوح مدته بين يوم واحد وثلاثة أيام، عكس جلود الغنم التي تنظف مباشرة في الماء النقي لتدخل دباغتها بعد ذلك المرحلة الموالية.

وتمكّن عمليات التنظيف الأولي من إزالة الأوساخ العالقة بالجلد، وتطريته حتى تسهل إزالة ما به من شعر وبقايا صوف وغير ذلك.

- التجيير:

يعد الجير في هذه المرحلة أساسيا، إذ يعتبر وسيلة لإزالة الشعر وبقايا الصوف وما يكون عالقا بالجلود من بقايا اللحم والشحم. فيتم وضع مسحوق الجير فوق كل وحدة من وحدات الجلود، لتزج بعد ذلك في الأحواض المحتوية على ماء الجير تعرف بـ«المجاير». وتتم هذه العملية لمرات متوالية بنقل الجلود من مجيار إلى آخر، حتى يسهل نزع الشعر من جلود البقر والماعز والجمال التي تعد العقبة الأساسية في هذه المرحلة من الدباغة. وقبل فراغ الحرفيين من التجيير يضعون الجلود في ماء نقي تضمه صهاريج تعرف بـ«المراكل» كدلالة على دَوْس أقدام العمال للجلود مرات متعددة حتى تتخلص الجلود من الجير والأوساخ.

- التبصاق:

تدعى هذه العملية أيضا بالتبزاق نسبة إلى بصق أو زبل الحمام. وهي مادة يكمُن

دورها في إزالة رواسب الجير من الجلد الذي يرجع له لونه الأصلي المائل إلى البياض. وكان الدباغون يحصلون على البزق من الذين يجمعونه في محيط المدينة[١] عن طريق شرائه منهم.

- التنخـال:

هي عمليات إدخال الجلود المبزقة إلى صهاريج تحتوي على خليط الماء والنخالة، بهدف إزالة رائحة البزق منها وفتح مسام الجلود، وإكسابها الرطوبة والنعومة، حتى تصبح مهيأة لاستقبال الدباغ[٢].

- الدبـغ:

يعتبر الدبغ أهم مرحلة في الدباغة،ويتم بإضافة مواد تعرف بـ«الدَّبَاغ » إلى الجلود تؤدي إلى تحسين جودتها وتحويل لونها. وقد عُرفت مواد الدباغ في المشرق بالقرظ[٣] وهو نوع من النبات، في حين نعتت في المغرب بتكاوت التي كانت تنقل إلى فاس من بلاد تافيلالت والأطلس المتوسط ومواد أخرى نباتية أيضا نقلت إليها من غابات المعمورة والأطلس الكبير[٤].

وكان الدباغون يقومون بتنقية هذه المواد وطحنها بأرحاء خاصة بذلك وجدت بعضها بالقرب من دور الدباغة، كالتي وُجدت بحي القلقليين من عدوة

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٨.

(٢) يقصد بالدباغ المواد التي تتم بها عملية دبغ الجلود ، ورد ذلك عند الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٣٦.

(٣) نفسه، ص: ٧١٥.

(٤) السعيدي، عبد السلام: دار الدبغ، معلمة المغرب، م١٢، ٢٠٠٠، ص ص: ٣٩١٨ الذي ذكر أن المواد النباتية الأخرى هي: الرباطي، البلدي وميموزا.

الأندلس[١]. وبعد ذلك يُضاف مسحوق هذه المواد إلى الماء الموضوع في صهريج ثم تغمر فيه الجلود التي تمتص الدِّباغ[٢] بمكوثها في الماء.

- التلميع والصباغـة:

كان التلميع يتناسب مع جلود الماعز والغنم في هذه المرحلة من الدباغة، في حين تناسبت الصباغة مع جلود البقر والإبل. ويتم التلميع بوضع خليط مسحوق قشور الرمان والزيت على الجلد ثم حكه على قدور بها نتوءات، إذا كان الأمر يتعلق بجلود الغنم. أما جلود الماعز فتلمع عن طريق وضع خليط الماء والشب عليها ثم تدليكها بالزيت. وبالنسبة لصباغة الجلد فتحصل بإدخاله في طنجير نحاسي يحتوي على خليط خاص بالصباغة، ثم تسحب منه وتمسح وتدلك[٣].

- التجفيف والتشميس:

بعد الفراغ من التلميع والصبغ، تنشر الجلود في أفنية خاصة تفقدها الرطوبة بعد أن تتعرض لأشعة الشمس ثم تدلك بالزيت، وتجمع فتوجه إلى السوق بقصد بيعها[٤].

تلك هي أهم مراحل الدباغة التي تعددت فيها المواد والوسائل والتقنيات، حسب نوع الجلد وما يستحقه من أعمال لدبغه. ومن خلال الكتابات المصدرية يتضح أن الكميات المدبوغة من جلود الإبل كانت قليلة، وهو أمر واضح لقلة هذا

(١) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥.
(٢) السعيدي: المرجع السابق، ص: ٣٩١٩.
(٣) نفسه، ص ص: ٣٩١٩-٣٩٢٠.
(٤) نفسه، ص: ٣٩١٩.

النوع من الجلد بفاس التي تبعد عن مصادره بالصحراء. وتنوع الجلود المدبوغة ووفرة ما عرض منها في الأسواق احتاج إلى عدد كثير من دور الدباغة سكت عنه الوزان، لكن البادي أنه فاق العدد المسجل في الفترة الموحدية وهو ٨٦ دارا[١]، نظرا للتطورات التي عرفتها المدينة على المستويات العمرانية والاقتصادية... وكانت أماكن تواجد المياه مفضلة لدى الدباغين الذين أنشؤوا حولها دورا خاصة بحرفتهم، خصوصا بالمناطق البعيدة عن الأحياء السكنية التي تضم فضاءات يمكن للحرفيين الاشتغال فيها، وحددت المصادر بعض أماكن الدباغة منها ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين قريبا من الصفارين، وهو مكان لازال نشيطا في هذه الحرفة يعرف بشوارة حاليا ثم الطريق الغربي في اتجاه باب الشريعة، وحي القلقليين والعيون[٢].

٢- الخـرازة:

مارس هذه الحرفة الخرازون الذين اشتغلوا على الجلود المدبوغة بخرزها، أي خياطتها وتحويلها إلى أحذية انتعلها الناس رجالا ونساء وأطفالا. تدخل أنواع من الخرازة ضمن الحرف الكمالية دعا إليها الترف مثلها مثل الدباغة[٣].

وقد استعملت مواد وأدوات وتقنيات عند الخرازين. فإضافة إلى الجلود احتاج الخرازون مواد أخرى مثل الخيوط والأغشية الواقية[٤]. كما استعملوا أدوات في

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٠٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠١.

(٤) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 ème siècle, P : 122.

عملهم، كالإبر والحشفات والسكاكين والأمقاص والمطارق والزبرات الحديدية وغيرها، حولوا بها المواد إلى مصنوعات. وكانت تقنيات الصنع عندهم تمثلها عمليات تفصيل الجلد ثم الشروع في خرزه وتتميم صنعته.

ومن أهم الأسواق والأحياء التي اشتغل فيها الخرازون سوق التجار بجهة باب السلسلة الذي اشتمل على حيين خاصين بالخرازين صنعت بهما أحذية لأعيان المدينة تم تطريزها بخيوط الذهب والحرير، وبيعت بأثمان مرتفعة لا يمكن لذوي الدخل البسيط شراءها[١]، وهي خاصة بالنساء. ومارس الخرازون أيضا بعدوة القرويين صناعة أحذية خاصة بالأطفال في حي قريب من السبيطريين تكون من خمسين دكانا. وعَرف حي القطانيين صناعة أحذية الرجال تنعت بالبلغة في حي زقاق البغل[٢].

أما تسويق مصنوعات الخرازين فتم بوساطة من الدلالين وبمحلات التجار أو بعرض مباشر في محلات الخرازين. فقد كانت تُباع الأحذية في أسواق المدينة بالمزاد العلني، كما عرضت أنواع منها في الأحياء التي صُنعت بها، تولى التجار بيعها بالتقسيط حول جامع القرويين من جهته الجنوبية[٣].

### ٣- صناعة الأحزمة:

هي الأحزمة الجلدية التي تتمنطق بها النساء ،كان العاملون فيها يسمون

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩. ويبدو أن الوزان أطلق اسم سوق التجار على القيصارية التي احتلت مكانا شاسعا وسط عدوة القرويين.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٨؛ Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 ème siècle, P : 226.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٤.

الحزامون ، الذين يزخرفونها بالحرير. وتقنيات صنعها تمثلت في تفصيل الجلد بقطعه بالمقص وفق المقاييس المطلوبة، ثم إعداده بالصنعة، وخياطة خيوط الحرير عليه بالشكل الذي تتناسب فيه ألوانها مع وجه الجلد، ثم وضع عقد تربط بين طرفي الحزام.

وقد اشتغل الحزامون بدكاكين لهم إلى اليمين من المتجه من الشماعين نحو القطانين في الزقاق الذي كانت تباع فيه القنب والحصر[1].

### ٤- صناعة أكياس النقود:

يدعى أصحابها بالبزاطمية، وقد تداخلت حرفتهم مع الحزامين، وهو الأمر المفسر لتواجد دكاكينهم جنبا إلى جنب في الحي المشار إليه سابقا[2].

وقد اختص البزاطمية في صناعة أكياس جلدية لاحتواء النقود خاصة بالرجال. وتتم صناعة تلك الأكياس باقتناء الجلد المناسب للصنعة وتفصيله وتزيينه بالتذهيب والتزويق المناسبين وإتمام صنعته، ويحتاج هؤلاء الصناع علاوة على الجلد لمواد أخرى كبعض الأغشية والخيط، وإلى أدوات مثل الأمقاص والسكاكين والمطرقات وأدوات القياس، ويقوم البزاطمية بعرض ما يصنعونه في سوق الدلالة.

### ٥- صناعة الأقراق:

كانت الأقراق تعرف أيضا بالقباقب، وذلك كُنْية على ما كانت تحدثه من أصوات في أرجل من يلبسها. والأقراق نعال أو خفاف قاعدتها من خشب التوت

---

(١) نفسه، ص: ١٨٥؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

(٢) نفسها.

أو الجوز أو الليمون أو العناب يُزينها الجلد المطرز بالحرير الذي يقبض الأرجل، وتكون مصفحة بالحديد. واستقر صانعوا الأقراق في سوق خاص بهم هو سوق القراقين كان يقع في جهة المركطال الحالي بعدوة القرويين. واشتهروا بهذه الصنعة التي كانت منتوجاتها موجهة لأعيان المدينة الذين يلبسونها في أرجلهم خلال أوقات الشتاء والوحل الذي كان يملأ أزقة وشوارع المدينة[1].

واحتاج القراقون في حرفتهم إلى مادة الخشب بالأنواع المشار إليها سابقا، إضافة إلى أدوات تكونت من أشياء حادة تهيىء الخشب وتقطع الجلد، والمطارق والمسامير والإبر والخيوط وغيرها. ونظرا لقيمة المواد المستخدمة في الصنعة والمهارات الحرفية المستعلمة في التحويل، بيع هذا النوع من النعال بثمن مرتفع تراوح بين مثقال ومثقالين للزوج الواحد[2].

وقد أثار إدخال الأقراق إلى المساجد جدالا بين الفقهاء الذين أجازوا ذلك شريطة تنظيفها [3] قبل الدخول، مما يعلق بها من أوساخ ووحل. وهو دليل على شيوع استعمالها من طرف الناس في المدينة.

### ٦- مصنوعات جلدية أخرى:

صنع العاملون أهل الحرف الجلدية المذكورة آنفا أو أرباب حرف أخرى مصنوعات جلدية غير التي ذُكرت، كالزرابي الجلدية التي كانت تزخرف بالذهب والحرير والصغيرة الحجم استعملت في الجلوس عليها، وقد كانت تباع مع الأفرشة

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، هامش، ص: ٧٢، المحقق.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

(٣) الونشريسي: المعيار المعرب، ج١، ص: ١٦.

والأغطية بباب السلسلة[١]. وصنعت بفاس أيضا المحافظ والحقائب أو الشكاير أتقن الحرفيون صنعتها بزخرفتها وتنميقها وتطريزها[٢].

لا تحصر أنواع الحرف الجلدية المتحدث عنها في هذا المطلب المذكورة كل الصناعات التي اعتمدت مادة الجلد، إذ أن الجلد دخل أيضا في صناعات أخرى سيتم عرضها عند تناول صناعة الأسلحة في المبحث الموالي، وصناعة التسفير التي ترتبط بحرف الوراقة سيتم الحديث عنها في هذا الفصل أيضا.

(١) الوزان: نفسه، ص: ١٨٩، مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤، التازي: التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٨٩.

## المبحث الثالث

### صناعة المعادن والأسلحة

سبق التطرق لتصنيع معدن الحديد ضمن الحرف البسيطة، والحرف المركبة بدورها لن تستغني عن هذا المعدن خصوصا بالنسبة لبعض أنواع السلاح. وكانت المعادن الأخرى من نحاس وفضة وذهب وغيرها منشطة للصناعة المعدنية التي اعتمدت على التقنيات المتطورة واقتنيت مصنوعاتها لدواعي الترف، وقد اعتُبرت الأواني والحلي أهم المصنوعات المعدنية.

وإذا كانت دار الصناعة التابعة للدولة بفاس الجديد قد احتضنت صناعة أنواع من الأسلحة –سبق الحديث عنها عند تناول الصناعات المخزنية –، فإن أحياء حرفية بفاس العتيق شهدت عمليات تصنيع أسلحة أيضا أقل تطورا وتعد تقليدا للتقنيات المعتمدة، من مصنوعاتها السيوف والخناجر والقسي والدروع... هدف بعض هذه الصناعات كان الاستعراض والاحتفال. وهو ما جسدته صناعة زينة الخيل من سروج وتوابعها. والتطور الذي عرفته صناعة الأسلحة من طرف الخواص في المدينة العتيقة هو التوصل إلى ابتكار بعض أنواع السلاح الناري وأهمها البنادق.

## المطلب الأول

## صناعة المعادن

أهم فروعها هي صناعة الحلي والمجوهرات التي تخصصت فيها طائفة اليهود وصناعة الأواني النحاسية التي اعتبرت من الصناعات المهمة التي اختصت بها مدينة فاس. وقد اعتمد الحرفيون المشتغلون بحرف هذين الفرعين على المواد المعدنية بأنواعها المختلفة ومواد غير معدنية. وحضي فرع صناعة الحلي بعناية خاصة من الدولة تجنبا لعمليات الغش التي تضر بالأوضاع العامة للبلاد، في حين خضعت صناعة الأواني النحاسية التي صنعها الصفارون[1] لمراقبة الحسبة كغيرها من الطوائف الحرفية.

### ١- صناعة الحلي والمجوهرات:

نُعت المشتغلون بصناعة الحلي بالصائغين لمواد الذهب والفضة والنحاس، وضبطوا بحكم تكوينهم وتجاربهم تقنيات صناعة الجواهر فمارسوها، حيث ميزها التشابه مع الحلي من حيث القيمة المرتفعة للمعدن وتقنيات التصنيع. وإذا كان اليهود قد أقبلوا على هذه الصناعة وحرصوا على العودة إليها بعد أن منعتهم منها قرارات سلطانية، فإن المسلمين تعففوا في ممارستها لتعدد أوجه الربا فيها[2].

---

(١) هم حرفيون عرفوا بهذا الاسم لاشتغالهم بتصنيع النحاس الأصفر.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٣٦-١٣٧؛ الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢١٩؛ السلامي: وثائق مرينية، ج٢، د د ع، ص: ١٤٠.

- مفهومها:

شاع نعت صناع الحلي والمجوهرات بالصائغين أو الصواغ. وقال فيهم أحد الباحثين المشارقة[١] أنهم اشتغلوا بـ«حرفة الصائغ، وصاغ الشيء، أي هيأه على مثال مستقيم، وسبكه عليه، فانصاغ والصياغة تأتي بمعنى الصبغة أي حسن العمل»، وأضاف الخزاعي أن: «صياغة الشيء تعني سبكه»[٢]. لذا فمفهوم الصياغة يدل على عمليات وضع القوالب أو الإطارات، وفرغ المعدن المذاب فيها إلى أن يتصلب ويصبح قطعا، تحول إلى حلي بعد معالجتها من طرف الصائغين بالتقنيات والمواد والأدوات والمهارات التي يكتسبونها.

- نظامها:

خضعت الصياغة لنظام خاص، إذ كانت أعمالها تتم بدكاكين داخل فاس الجديد أمام أعين الناس، قريبا من دار السكة. وكانت المصوغات المصنوعة هناك تطبع من طرف أمين الحرفة الذي يحتفظ «بقالب المعادن وأختام النقود»[٣]، حيث كانت الحلي أيضا تحمل طابع السلطان مثلها مثل النقود التي تضرب بدار السكة، وهو الأمر الذي استدعى مراقبة دقيقة من طرف أمين الصواغ وأمين دار السكة تجنبا لوضع طوابع خارجية[٤] مزورة على الحلي.

وبعد صنع الصائغين لما يصوغونه من حلي، يقومون بعرضها للبيع بفاس

(١) العمري، عبد العزيز: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ص: ٢٧٣.

(٢) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٧.

(٣) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٧٣-٧٤.

القديم في أحد الأزقة القريب من سوق العطارين[١]، ويرجح أنه هو الذي لازال يسمى بسوق الصاغة بين الديوان والعشابين.

استفادت خزينة الدولة من الضرائب التي كان يدفعها الصائغون، وقد كان أمين الحرفة مكلفا إذ يرجح حصوله على ضريبة طبع الحلي من الحرفيين عند طبعه لمصوغاتهم.

- أدواتهـا:

نظرا لطبيعة عمليات الصنع المركبة وكثرة الكميات المصنوعة، احتاج الصاغة لأدوات متعددة. فقد تمت الإشارة سابقا إلى الطوابع أو الخواتم التي كانت رموزها توضع على الحلي المصوغة، وقد احتاجت عمليات الصياغة أيضا إلى الأفران التي تطبخ فيها المعادن الخام والسبائك في مراحل متعددة من التصنيع، والقوالب التي خصصت لإفراغ المعدن المذاب، والمطارق التي تستعمل في الضرب، والقطع أو زبرات الحديد التي يضرب عليها، واللقاقيط، والأدوات الدقيقة والحادة التي تقطع وتخرط بها المعادن والجواهر، أو التي يتم بواسطتها الصقل والتلميع كالمبارد، فضلا عن الآنيات المختلفة الأحجام الطينية والمعدنية، والموازين والصنجات التي تقاس بها كميات المعادن والحلي[٢].

(١) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧؛ المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ٣٣.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص: ٧٤؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢١٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٣-٤٠٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٨.

- تقنياتها:

ميزها التركيب[١]، وذلك لتعدد مراحل التصنيع وتسلسلها وتداخلها، والقيمة المرتفعة للمواد والإتقان في الصنعة.

ونظرا لمعالجة صناع الحلي معدني الذهب والفضة، وحاجتهم إلى كميات أخرى من المعادن الأخرى والمواد غير المعدنية في معالجة المعدنين النفيسين، وتصنيعهم للجواهر المحولة إلى حلي تتزين بها النساء أو تدخل في ترصيع وتزيين المعادن المصنعة. فإنهم استعملوا في صناعتهم أدوات وتقنيات مترابطة ومتسلسلة.

لذلك كان الصائغ يستهل عمله في البداية بمعالجة المعدن الخام أو المسبوك فيذيبه ويتأكد من جودته بعد إزالة الشوائب منه، ثم يمد المعدن المذاب الجيد في قوالب مهيأة سلفا، مما يساهم في تحويل هذا المعدن إلى قطع مسبوكة صلبة بعد مدة معينة، ثم تُخرج تلك القطع، ليشرع الصانعون ومساعدوهم في الاشتغال عليها بالنقش والخرْم والتلميع والترصيع بالجواهر والطَّرق والتحذيق[٢]، باعتمادهم تقنيات دقيقة ومهارات مكتسبة لديهم. ويميز التسلسل والتداخل عمليات صنعتهم، بطرق تتعدد حسب نوع الحلي التي يتم الاشتغال عليها وما تتطلبه من أعمال.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٢) تسجل ندرة المعلومات المصدرية عن التقنيات التي صنعت بها الحلي، وهو الأمر الذي جعلني أقيسها على ما ورد عن تقنيات صناعة النقود اعتبارا لقول الحكيم في دوحته، ص: ٧٤، أن «الصياغة والسكة تجمعهما النار والمطرقة والطابع»، ويمكن الاستعانة أيضا بما جاء عند ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٣-٤٠٤؛ ولوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٩٩-١٠٠.

وعالج الصواغ أيضا الجواهر التي كانوا على معرفة بأنواعها وقيمها. حيث يقومون بعد اقتنائها بتهييئهاواستعمالها في ترصيع الحلي أو مصنوعات أخرى مثل السروج[1]، أو تحويلها هي ذاتها إلى حلي تتزين بها النسوة.

- أنواع الحلي والمجوهرات المصنوعة:

بالتقنيات التي صُنِّعت بها معادن الفضة والذهب، صنعت بها أيضا حلي من معدن النحاس، لكن هذا النوع الأخير كان لا يخضع للمراقبة التي خضع لها المعدنين النفيسين، مما سمح لصناع الحلي في المدينة العتيقة بالاشتغال عليه. وقد أدمج الصائغون الجواهر في عمل الحلي نظرا لقيمتها.

والجدولان المواليان يلخصان أنواع الحلي والمجوهرات التي تم تصنيعها من طرف صائغي فاس:

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٦٠٤.

- الحلي[1]:

| اسم الحلية | موادها | دورها التزييني |
|---|---|---|
| الخواتم (م خاتم) [2] | الذهب أو الفضة | أصابع اليدين |
| الأساور/ الأسورة (سوار) | الذهب أو الفضة | حول كوعي الأيدي |
| الدمالج (دملج) | الذهب أو الفضة | حول كوعي الأيدي |
| الخلاخل (خلخال) | الذهب أو الفضة | بالأرجل فوق الأقدام |
| القلائد (قلادة) | الفضة والجواهر | حول الأعناق |
| العقود (عقد) | الجواهر (العقيق) | حول الأعناق |
| الأقراط (قرط) | الذهب والجواهر | تعلق بالآذان |
| الحلق (حلقة) | معدنية (النحاس) | تعلق بالآذان |
| المناطق/ المضمات (مضمة) | المعادن والجواهر | أحزمة تحيط بالنطاقات |
| التيجان (تاج) | المعادن والجواهر | فوق رؤوس العرائس |
| العماريات (عمارية) | معدنية (النحاس) | محمل تزف فيه العرائس |

(١)- اعتمدت معلومات المصادر والمراجع الآتية في صياغة هذا الجدول: ابن هلال: الدر النثير، ص: ٥٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ١٠ ج، مسطرته : ١٨ سنتيمتر، مقاسه : ٢٢ على ١٧½ سنتيمتر، عدد الصفحات : ٣٦٨، عدد الأوراق : ١٨٤، مكتوب بخط أندلسي جميل وواضح، دون تاريخ.، ص ص: ١٢٣-١٢٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٩٩-١٠٠؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧؛ الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٦٧، حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، ص: ٢٢٧٤.

(٢) م = مفردها.

- المجوهرات[1]:

| اسم المجوهرة | نوعها | مصدرها | مميزات صنعها |
|---|---|---|---|
| الصدف الحسن | صدف نهري | وادي الجواهر بفاس | معالجة خفيفة |
| الودع | صدف بحري | أوربا | تقنيات بسيطة |
| الياقوت | حجر كريم | منجم قرب أغمات | تطعيم الحلي |
| المرجان | حجر كريم | وفرته بالمياه البحرية في المغرب | خراطته |
| العقيق | جوهر | مناجم بالمغرب | تحويله إلى عقود |
| اللؤلؤ | جوهر | لعله جلب من الخارج | ترصيع السيوف والحلي |
| الجوهر النفيس | جوهر | بلاد المغرب | ترصيع التحف |

ولا تحصر المعلومات الواردة بالجدولين السابقين كل أنواع الحلي والمجوهرات التي اشتغل الحرفيون بتصنيعها، بل أهمها فقط، إذ وردت إشارات مصدرية إلى أنواع أخرى مثل الشنوف التي يرجح أنها حلي معدنية كانت تزين بالجواهر، كما كانت الأحجار الصلبة والبلورية مواد حولها الصانعون إلى حلي زجاجية مثل النظم والخرز، فضلا عن السبحات التي كانت عبارة عن حبات تقبل عليها نساء

(١) صيغ هذا الجدول اعتمادا على المعلومات الواردة بالمصادر والمراجع الآتية: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٥٢؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه: الإحاطة، ج٤، ص: ٣٢٣؛ ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس؛ ص: ٢٥؛ بنكرعي، حليمة: العقيق، معلمة المغرب، م١٨، ص ص: ٦١١٣-٦١١٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٦٠٤.

البوادي[١].

كما كانت الفضة والنحاس تموه بمحلول الذهب والفضة بقصد تحسينها وتجميلها بالشكل الذي يساعد في إقبال النساء عليها اللواتي كن تقدمن على اقتناء الحلي والمجوهرات قصد التزين بها. في حين تعفف الرجال عن اتخاذ الحلي لتحريم الذهب عليهم[٢]، ولكون التزيين خاصية نسائية.

### ٢- صناعة الأواني النحاسية:

استعملت مادة النحاس بشكل أساسي في صناعة الأواني. ومثلت صناعتها مصدر افتخار لأهل فاس، إذ كانت تأتي بعد صناعة النسيج[٣]، من حيث الأهمية، وقد وجهت مصنوعاتها للسكان الحضريين الذين دعتهم أحوال الترف والغنى إلى طلبها[٤].

ودُعي صانعو الأواني النحاسية بالصفارين في إشارة إلى صناعتهم للأدوات والآلات والقدور من النحاس الأصفر[٥]. وكان الحصول على هذا النوع من النحاس يتم باستعمال مادة التوتيا التي تؤدي إلى تحويل لون النحاس من الأحمر إلى

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه: ريحانة الكتاب، ص ص: ١٢٣-١٢٤؛ حافظي، علوي حسن: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٢٦-١٢٧.

(٣) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص ص: ٨٥-٨٦.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠١.

(٥) أبو سديرة، السيد طه: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي ، ١٩٩١.، ص: ١٥٧.

الأصفر[١]. وهو عمل ليس بالضرورة أن يقوم به الصفارون، حيث كان بإمكانهم الحصول على الصَّفَر جاهزا[٢] من أسواق المدينة. وسواء حولوا لون النحاس بأنفسهم أم اشتروه، فإن عمليات تصنيعه تبتدئ بتفصيل صفائحه إلى قطع بواسطة الأمقاص وفق الأبعاد المطلوبة، ثم الضرب عليها بالمطارق قصد تطويعها خاصة إذا كانت سميكة.

واحتاجت بعض أنواع الأواني إلى تقنيات النقش بأدوات حادة ، إذ يضرب عليها الصانع بمطارق خفيفة وبدقة ومهارة حرفية، فيشكل بذلك لوحات تحمل زَوْقَات معينة عادة ما تكون هندسية تدمج معها زخارف نباتية في شكل متشابك ومتداخل.

واختصت بعض المحلات في صناعة المخروطات من النحاس التي اشتهرت بها مدينة فاس[٣]، كانت صناعتها تتم بتذويب المعدن وفرغه في قوالب معدة لذلك، وإخراج الأشكال المفروغة منها بعد تصلبها، ثم إتمام صنعتها بتحسين خراطتها وصقلها وتلميعها. واعتبارا لكون المخروطات تعد أجزاء تلحق بالأواني النحاسية، فإنها كانت تتطلب تلحيمها مع تلك الأواني من قِبَل الصانعين، ثم صقلها لإزالة آثار التلحيم وتلميعها، وتوجيه بعض الأنواع منها للتحلية بالذهب أو الفضة[٤] في المحلات الخاصة بذلك.

---

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص: ٢٨٤؛ حافظي، علوي حسن: التوتيا، معلمة المغرب، م٨، ١٩٩٥، ص: ٢٦١٦.

(٢) الصفر اسم عرف به النحاس الأصفر.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٧، نقلا عن مسالك الأبصار للعمري.

(٤) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ٣٠٩.

ولذلك فقد ميزالتعدد أشغال الصفارين وهو ما تطلب تعدد تخصصات الحرفيين ومساعديهم، التي شملت النقش والخرط والتلحيم والتلميع، فضلا عن تطويع المعدن بالضرب بالمطارق الذي كان يخص الأواني ذات الحجم الكبير كالمستعمة في الطبخ على النار.

وتنوعت مصنوعات الصفارين، كما تعددت أشكالها وأحجامها حسب حاجيات الناس منها ، الذين بذلوا مجهودات في الاستجابة إليها. فقد صنعوا أواني استعملت في الأشغال المنزلية مثل القدور[١] المعتمدة في الطبخ، كانت صناعتها تستدعي توفير صفائح متوسطة السمك ولم تكن محتاجة إلى نقش. كما صنعت الطناجير المتباينة الأحجام منها ما استعمل في الطبخ في أوقات الحفلات، وما اعتمده الحرفيون في طبخ بعض المواد التي يستخدمونها، وهو الأمر الذي حصل عند الدباغين[٢] والصباغين والخلاعين[٣]. ومن الأواني المنزلية الأخرى التي صنعها الصفارون وتطلبت منهم نقشها البقارج التي تحمل فيها المياه، والطستات التي تقدم للضيوف قصد غسل أياديهم فيها، قبل وبعد تناول الوجبات الغذائية، إضافة إلى الأباريق والبراريد المخصصة لطبخ الشاي[٤] وغيره، والصحون والأطباق والميادي التي تقدم فيها الأطعمة، ومباخر الصفر[٥] والمرشات الحاملة للطيوب.

كما صنع الصفارون بالإضافة إلى الأواني مصنوعات أخرى خدموا بها الحرفيين

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٢٨.

(٢) السعيدي، عبد السلام: دار الدبغ، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩١٨.

(٣) هم صانعو الخليع بطبخ لحم البقر مع الأدم.

(٤) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٤٧؛ السلامي: وثائق مرينية، ص: ٣٥.

(٥) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ٣٠٩؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص: ٢٤٣؛ ابن الأحمر: نثير الجمان، ص:٤٢٧.

والتجار وأرباب المنازل والمحلات وعامة الناس. فقد اعتُبرت الصنجات النحاسية من المصنوعات النحاسية المتصفة بخراطتها الجميلة[١]، وهي ذات أوزان صغرى كالأوقية والرطل وما بينهما من أوزان، إضافة إلى الأقفال[٢] التي تغلق بها الأبواب، والمطارق التي تعددت استعمالاتها، والقنوات المائية التي كوَّنَت منها شبكة توزيع الماء داخل المنازل والمحلات[٣].

وقد احتضنت قبلة جامع القرويين أعمال الصفارين[٤]، وهو مكان له أهميته الكامنة في تواجده بمركز المدينة، قريبا من الأسواق و المعالم المعمارية الكبرى، ومن الوادي الذي كانت مياهه تستعمل كمادة أولية في مراحل التصنيع[٥]. إلا أن أماكن خراطة النحاس وما تطلبته من إقامة للأفران وإيقاد للنار استدعت بعدها النسبي عن حي الصفارين تجنبا لإيذاء رواد السوق ومحيطه، وضفة الوادي مؤهلة لممارسة أعمال الخرط مادام أربابها في حاجة إلى المياه قصد تبريد وتنظيف المخروطات.

لم تكن المصنوعات الذهبية والفضية والنحاسية التي سبق ذكرها، هي كل المواد المعدنية التي حولها الصناع، لكنها الأهم، إذ عرفت فاس تصنيع معدن القصدير الذي غشيت به سقوف البنايات[٦]، يرجح أن يكون الحرفيون الذين نعتوا

(١) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٦٨؛ النويري نهاية الأرب، ج٦، ص ص: ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) هيل، دونالد: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، عالم المعرفة، ع٣٠٥، ص: ١٩٤.

(٣) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٧٠.

(٤) الوزان: م س، ج١، ص: ١٨٤.

(٥) لوتورنو: م س: ص: ٤٠.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٥.

بالقزادرية[1] هم من أشرف على تصنيعه، رغم أن هذه الحرفة تطلق أيضا على الذين يصلحون الأواني النحاسية والفضية. كما صنعت من النحاس أيضا الثريات، ومن الرصاص القنوات المائية، وهيمنة الصناعات التي أشرفت عليها الدولة ومؤسسات الأوقاف على مثل هذه المصنوعات كان داعيا لعدم التعرض لها في هذا المقام.

(١) بنعبد الله: المرجع السابق، ج١، ص: ٨١.

## المطلب الثاني

## صناعة الأسلحة

كانت بعض الأحياء الحرفية في المدينة العتيقة نشيطة في تصنيع أنواع من الأسلحة، تموقعت بباب السلسلة وفي محيط النجارين وعلى الطريق الغربي في اتجاه باب الشريعة. مما يوحي بأن هذا التوزيع مرتبط بالتزود بالمواد الأولية وفي مقدمتها الحديد والخشب والجلد فضلا عن الماء، والتسلسل والترابط مع بعض الصناعات الأخرى وخاصة الحدادين، وتسويق المصنوعات حيث كانت أعمال الصنع والبيع تتم في آن واحد بالمحلات خصوصا التي وقعت على شارع غاص بالمارة مثل الطريق الغربي المشار إليه.

مثلت زينة الخيل، والأدوات والآلات الحربية فرعان أساسيان من الأسلحة المصنوعة، زود بها الحرفيون الفرق العسكرية التي تولت الدفاع عن كيان الدولة، وأفراد المجتمع الذين استخدموها في أنشطة غير عسكرية كالصيد والفروسية، والتجار سواء كانوا أجانب أو محليين.

### ١- زينة الخيول[1]:

الزينة هي المصنوعات التي جهزت الخيول، والتي تكونت من السروج وما يرتبط بها من سقط[2]. وتجهيز الخيول بأدوات الزينة بهدف إنجاز المعارك الحربية

---

(١) وردت هذه العبارة عند الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٩؛ وعند مارمول، إفريقيا، ج٢، ص: ١٥١، وتعني الأدوات التي تجهز بها الخيول قصد امتطائها.

(٢) وردت كلمة «السقط» بمصادر من بينها: فيض العباب، ص: ٢٣٥، وتدل على اللوازم الملحقة بالسرج.

وإقامة الاستعراضات للفرق العسكرية أمام السلطان، إضافة إلى أعمال غير حربية كالفروسية والسفر وغير ذلك.

وقد دخلت عدة مواد أولية في صناعة السروج والسقط، وهي الجلود والخشب والمعادن والقنب... حولها الحرفيون بمهاراتهم ، التي مالوا فيها إلى إضفاء طابع جمالي على ما صنعوه منها. مما جعل مدينة فاس تستقطب الاهتمام ليس المحلي بل الأجنبي أيضا، حيث حملها التجار إلى الآفاق البعيدة. كما تضمنت هدايا ملوك المغرب سروجا وأنواعا من[1]، لا يمكن نفي مساهمة الحرفيين الخواص فيها.

- السـروج:

تنعت أيضا بالمطايا الفارهة، وانتعشت صناعتها في فترات استقرار وازدهار الدولة وتحسن معيشة الناس، التي يميلون معها إلى ركوب الفاره[2].

تميزت صناعة السروج بأنها تتم عبر مجموعة من المراحل المتسلسلة، تعددت معها تخصصات الحرفيين والمواد والأدوات والتقنيات التي اعتمدت من طرفهم، وتتمثل هذه المراحل في:

. الحدوات أو القرابيس:

الحدوة هي الشيء المهم والبارز في السرج، الذي تتشكل هيأته بها، وتصنع من

(١) الصيرفي، علي بن داود: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر، دون تاريخ، ج١، ص:٤٧٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ص: ٦٠٤-٦٠٩، الذي تحدث عن هدايا موجهة من أبي الحسن إلى بلاد مصر.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٤٣٠ ؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٢٠٣.

الخشب ذو النوع الجيد. وهو الأمر الذي استدعى وجود الدكاكين المتخصصة في صنعها بالقرب من النجارين قصد التزود منهم بالخشب ذو الأبعاد المناسبة.

وأهم عمل يقوم به صانعو القرابيس بعد جلب الخشب هو نجره، فقد ذكر ابن القاضي عند ترجمته لسيرة أحد الفقهاء[١] أنه كان يقوم بعد تعليم الأطفال بطالعة فاس بـ«نجر أعواد السرج»[٢]، والمكان المذكور يقع على الطريق الغربية التي تنطلق من العطارين في اتجاه باب الشريعة، وهي التي كانت تمارس بها أيضا النجارة. وكلمة الأعواد تدل على الأخشاب التي تُعَدَّل ليتم تهييئها وتسميرها بالكيفية التي تحولها إلى قربوس له دور في ركوب الفارس للفرس وثباته على ظهره.

. أغطية السروج:

هي أغطية جلدية. تصنع للقرابيس على يد صناع مختصين، ولهذه الأغطية المصنوعة دور حفظ وستر أخشاب السروج، إذ يُثبت الجلد فوق الخشب عن طريق خرزه، وتطلبت صناعة الأغطية- المشار إليها -جلودا من النوع الجيد لكونها تكون بادية للعيان. ويبدو أن تقنيات هذه الحرفة كانت متأثرة بنظيرتها الأندلسية ، فقد ذكر الوزان أن صناعة سروج فاس كانت تعتمد على «جلد الماعز القرطبي»[٣]، و الأمر – في تقديري- لا يتعلق باستيراد الجلد، بل بنقل تقنيات الصنع من طرف الأندلسيين الذين هاجروا إلى فاس، مادامت مادة الجلد توفرت في المغرب صدرت منه إلى أوربا منذ فترات سابقة لتلك التي عاشها الوزان[٤]. وقد كانت بعض قطع جلد الأغطية

(١) أحمد بقر الله الفشتالي السلوي المتوفى سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٢ م.

(٢) ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ١٢٦-١٢٧.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩.

(٤) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٥ –د.ع- الذي استعرض مضمون معاهدة أبي

تدفع لصناع خاصين لزخرفتها، ثم تُضم بعد تسلمها منهم إلى القطع الأخرى المصنوعة من جلد أقل جودة تغطي الأماكن غير البارزة[١]، وتخرز ثم تثبت على القربوس بإحكام. وقد أضاف الوزان عن شكل غطاء السرج بتكونه من ثلاث زوائد بعضها فوق بعض[٢] يستنتج أنها تحمي الفارس من خشونة وصلابة خشب القربوس.

. زخرفة أغطية السروج:

ذكر في الكلام عن الحرفة السابقة، أن قطعا من الأغطية كانت تسلم لصناع متخصصين في زخرفتها، يقومون بتذهيبها بالطرق والتقنيات التي كانت تذهَّب بها المنتوجات الجلدية الأخرى. وتضفي عملية التذهيب على السرج جمالا بزخارف جميلة «زواقات» تزينه. وكانت بعض الأنواع من أغطية السروج تزخرف أيضا بترصيعها بالجواهر النفيسة[٣]. ولم تكن كل السروج تزخرف بالتذهيب أو الترصيع أو بهما معا، بل كانت الإمكانيات المختلفة للزبناء تستوجب صناعة سروج لا تحمل زخارف.

وبالإضافة إلى صناعة السروج كان محترفوها يقومون بإصلاح المتضرر منها للناس. وكانت الطالعة الكبرى مكانا نشيطا في صناعة وإصلاح السروج[٤].

---

الحسن المريني مع ملك ميورقة سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩ من بين ما تمنعه تحويل الجلد من المغرب إلى أوربا.

(١) عطا الله الجمل، شوقي: الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها، المناهل، ع٢، ١٩٧٥، ص: ٢٦٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٨-١٨٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ص: ٦٠٣-٦٠٤.

(٤) نعتت عند الوزان بالطريق الغربي في اتجاه مدرسة أبي عنان، المصدر السابق نفس الصفحتين.

- السقط:

هي توابع السروج واللوزام الأخرى لتجهيز الخيل. وتكونت من الركابات والمهاريز واللبانات والأجلم والأزمة والطقوم وغيرها، صنع بعضها من مادة الحديد والبعض الآخر من الجلد أو القنب أو غير ذلك.

.الركابات:

مفردها ركاب، واسمها يدل على أنها تساعد الفارس في الركوب بوضع أحد قدميه قصد امتطاء فرسه، ثم إدخالها في زوج الركاب المرتبط بالسرج في وسط طرفيه.

وكان صناع الركابات على دراية بحرفة معالجة الحديد إلى درجة نعتوا فيها بالحدادين، اعتبارا لاعتمادهم على مادة الحديد في الصنعة، وهو ما كان يستوجب ممارسة حرفتهم قريبا من الحرفيين الذين يُصنِّعون الحديد بمركز المدينة في جهة باب السلسلة.

وبالنسبة لتقنيات الصنع فتتمثل في فرغ الحديد داخل الأشكال المعدة له، ثم إخراجه وتعديله وتصويبه عن طريق المعالجة بالنار والضرب بالمطارق، ثم تبريد أزواج الركابات في الماء، فصقلها وتلميعها[1]، إلى أن تصبح جاهزة.

واختص في صنع الركابات مع ما شابهها من مصنوعات حديدية حرفيون أيضا، بالطريق الغربي بجانب الدكاكين التي كانت للسراجين هناك[2]. والراجح أن

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢؛ مارمول إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٥١، ١٥٤.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٨.

مركز المدينة كان يحتضن أعمال إعداد الحديد، لتوفر ما يلزم ذلك من استعمال المطارق والنار والتبريد في المياه، في حين أن الحي الغربي بالطالعة الكبرى شهد الأعمال الأخرى المتممة للصنعة كالزخرفة والصقل والتلميع.

. المهاميز:

هي أدوات حديدية توثق برجلي الراكب للخيل عن طريق إحكام ربطها على الخفاف في أسفل الأرجل[١] بالشكل الذي يحمي الراكب، ويتحف منظر الركوب. وصنعت هي المهاميز من طرف المختصين في تحويل الحديد بالمراحل والتقنيات التي كانت تصنع بها الركابات[٢]، فالاختلاف بينهما كان في الشكل فقط.

.اللبانات:

ذكرت في المصادر بالعطف على النوعين السابقين[٣]، لذا فإن مادة صنعها هي الحديد وتقنياتها شبيهة بتقنيات النوعين السابقين، ودورها تمثل في زخرفة الراكب عن طريق وضعها في قدميه.

. الألجم:

نعتت أيضا باللجم أو اللجامات، ومفردها لجام، ويتكون من أداة حديدية توضع بفم الفرس، وزمام يصنع من الجلد وله دور في تثبيت اللجام بربطه على رأس الفرس بين طرفي الفم وأعلى الرأس. ويرتبط الزمام بأسفل اللجام، يمكن الفارس

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦.

(٢) الوزان، ص: ١٩٢.

(٣) مارمول، ص: ١٥٤.

من التحكم في قيادة فرسه. وكان رأس اللجام أو الجزء الحديدي منه يصنع بالطُّرق التي تمت بواسطتها صناعات الركابات والمهاميز واللبانات[١]، بتهييء الحديد ومعالجته بالنار ثم تبريده وصقله وتلميعه، وقد مُوهت بعض اللجم بالذهب[٢] مثلها في ذلك مثل أنواع السقط الحديدية الأخرى. أما الأزِمَّة فتصنع من الجلد وتزخرف بالحرير وخيوط الذهب لكن صناعتها تتم على يد المختصين في صناعة جلود السروج[٣].

**. الشكائم[٤]:**

تدعى أيضا الأزمة، تصنع من الجلد، وتوضع على رؤوس الخيل لها حبل من قنب يقبضه صاحب الفرس، إذ به يستطيع قيادة الفرس دون لجام[٥]. وعادة ما تستعمل الشكيمة للفرس أثناء الاستراحة من المعارك أو من الاستعراض أو من غيرها. كما تتم قيادته بها بقصد تدريب أو تقديم ماء أو علف أو كلؤ له.

**. الأحزمة:**

تقبض بها السروج على ظهور الخيل، وأحدها[٦] يحيط ببطن الفرس بالارتباط من الطرفين الأسفلين للسرج ويسمى النطاق والآخر بطاقمه أو صدره، إذ يصل الجهتين الأماميتين، ويسمى هذا الأخير الدير، وقد صنعت أحزمة السروج من

---

(١) الوزان: ج١، ص: ١٨٨؛ مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص: ٤٧٣.

(٣) مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

(٤) أو الشُّكم، الوزان: ج١، ص: ١٨٥.

(٥) مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

(٦) الطويل، محمد حجاج: السرج، معلمة المغرب، م١٥، ص: ٤٩٦٠.

الجلد وزخرفت بالحرير[١].

. أنواع السقط الأخرى:

تنافس الصناع في إبداء الزخارف على السروج وسقطها. وساهم تزايد الإقبال على منتوجاتها، في تنويع صنع لوازم السرج، حيث صنعت قطع حديدية تعلق بطاقم السرج[٢] من طرف الحدادين المتخصصين في صناعة الأدوات الحديدية الأخرى للسرج. واستعمل الجلد أيضا في صناعة أغطية خاصة بصدور الخيل وفي صناعة خفاف ينتعلها الفرسان[٣]، وأغطية جلدية إضافية توضع فوق السروج تكون غير مخروزة عليها، والتي أصبحت تدعى الغبارات[٤]، إضافة إلى شماسات توضع على عيني الفرس تقيه من الشمس، وقد زخرفت هذه المصنوعات الجلدية بالحرير والتذهيب. كما صنعت من الحرير أيضا جدائل توضع في طقوم الخيل وسيور تعلق بالركابات[٥].

٢- الأدوات الحربيـة:

هي أدوات اعتمدها الفارس عند ركوبه الخيل، واستعملها الراجل أيضا عند قيامه بعمل يتعلق بحرب أو استعراض أو صيد أو غير ذلك. وتميزت الأدوات أو الآلات الحربية المصنوعة بمحاكاة التقنيات التي كانت سائدة من قبل، مع الاستفادة

---

(١) الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) الوزان: ج١، ١٨٨.

(٣) نفسه، ص: ١٨٥.

(٤) العيـاوي، فاطمة: جوانب من علاقة المخزن بالحرف (١٨٢٢-١٨٩٤)، د د ع، كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، إشراف: ابراهيم بوطالب، ص: ٩٧.

(٥) الوزان: ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

من التطورات الحاصلة بالشكل الذي ساهم في إبراز خصوصيات للمصنوعات عما كان سابقا. وقد لعب العنصر الأندلسي والاحتكاك مع المسيحيين دورا في إبراز تلك الخصوصيات.

ومثلما تنوعت المواد المعتمدة في صناعة المطايا والسقط، سجل التنوع أيضا في مواد صناعة أدوات الحرب، حيث شملت المعادن والجلود والخشب والقنب والحرير... استخدمت في تحويلها وسائل وتقنيات صناعية.

وتجاورت الأماكن التي احتضنت صناع الأدوات الحربية مع التي صنعت فيها زينة الخيل، وذلك بحكم التقارب في المواد والتقنيات والأهداف.

- الرمـاح:

مفردها رُمح، ويسمى صانعها بالرَّماح، وحرفته الرِّماحة [١].

يتكون الرمح من دراع يتميز بطوله ورأس حادة تتكون من مواد معدنية تلقب بالسنان[٢]. وقد تنوعت المواد التي دخلت في صناعة أدرع الرماح فصنعت من الحديد أو الخشب أو القصب. وكانت للرماحين دكاكين ذات شكل مستطيل يميزها الطول الذي تطلبه طول الرماح المصنوعة، وذلك بحيي باب السلسلة في ساحة كبرى خلق الصباغين وبدكاكين في الطريق الغربي فوق دكاكين السراجين [٣].

(١) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧١٠.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٤٧.

(٣) الوزان: ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

- السهـام:

تجمع على سهم، وتتميز عن الرمح بقصرها وقذفها بالأقواس، كما نعتت بالنبال أو الحِراب. وقد استعملت كنوع من السلاح عند الفرسان وأحيانا من لدن الرماة. وقد نشطت منطقة بضفة وادي فاس بعدوة القرويين في صناعة السهام [١]، من الراجح أنها نفس المنطقة التي احتضنت صناعة الرماح أو على مقربة منها.

- القسـي:

تدعى أيضا بالأقواس، تجمع على قوس. تمثل دورها في قذف السهام، صنعت من مادة الخشب من نوع النشب[٢]، وذلك بنجرها من قبل صانعيها. وعُرِفت مناطق صناعتها بالمنجرات.

وقد شهدت مدينة فاس صناعة أنواع من القسي مثل القوس العربية التي تواجد هواتها بالمدينة. وممارسة الرماية بهذه القوس أو غيرها تطلبت التدريب عليها في المرامي المخصصة لذلك [٣].

ومع التطور الذي شهدته صناعة الأقواس أدمجت في صنعتها مواد معدنية مثل الفولاذ، إذ كانت هذه المادة [٤] تثبت على طرفي القوس النصف دائري الذي يرتبط بالمحور العمودي، عادة ما كان هذا المحور يتكون من حبال جيدة الصنع تقذف منها

(١) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٦.

(٣) حركات، ابراهيم: الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٩٧٩، ع ٥-٦، ص: ٥١.

(٤) الوزان: ج١، ص: ١٩٢.

السهام[١].

ولم تكن مادة الفولاذ هي الإضافة الوحيدة في صناعة القسي، بل كان للجلد دور في زخرفتها مع مواد غيره. مما جعل صاحب فيض العباب يصف القسي التي حملها أرباب الصناعات حين استقبالهم للسلطان أبي عنان بأنها «بديعة الحسن»[٢].

- السيوف:

تجمع على سيف، وهي أداة أساسية تسلح بها المحارب، بوضعها في غمدها وشدها في حزامه، يشهرها في وجه الأعداء كلما كان في حاجة إليها. وقد استعمل السيف في غير المعارك كالتداريب والاستعراضات.

لقد دخل الحديد في عمل السيوف حيث أعِدَّت منه نصَاله التي تمثل الجزء الأهم فيها (السيوف)، وتمت صناعة هذه النصال بتهييء القطع الحديدية من لدن الحدادين وتحويلها إلى أدوات حادة عن طريق حميها بالنار والضرب عليها بالمطارق وتبريدها في الماء، ثم صقلها بعد ذلك على يد صناع خاصين وُجِدوا قريبا من الوادي بجانب الصيادين[٣] البائعون للحوت في جهة العشابين الحالية.

وتكونت السيوف أيضا من المقابض المصنوعة من الخشب[٤] المرصع بعضها بالعاج، تلحم بعد صنعها بالنصال. ولعل المقابض كانت تصنع من طرف صانعي الأغمدة للانسجام الذي كان يربطهما.

---

(١) مارمول، ج٢، ١٥٤.

(٢) النميري: فيض العباب، ص: ٤٩٨.

(٣) الوزان، ج١، ص: ١٨٧.

(٤) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٠١.

- الخناجر والمواسي [١]:

صنعت هي الأخرى مع السيوف، إذ كانت موادها وتقنياتها واحدة، لذلك كان الجزء الحديدي منها يصنع بباب السلسلة، في حين تصنع لها الأغمدة ثم تصقل وتتمم صناعتها على يد صناع خاصين في جهة العشابين مع السيوف والرماح التي يباع قسم منها هناك [٢].

وتتميز الخناجر والمواسي عن السيوف في الشكل، حيث تعد قصيرة وصغيرة الحجم.

- الغمادون:

هم حرفيون اختصوا في صناعة أغمدة السيوف والخناجر والسكاكين. أعدُّوها من مواد معدنية، وخاصة الحديد والخشب والعاج وتم تمويه بعضها بالذهب.

وقد أكدت المصادر التاريخية وجود سوق الغمادين قريبا من الموقع الذي كانت تصنع فيه السيوف والخناجر وغيرها من الأدوات الحربية. وتعرض هذا السوق بدوره لحريق مع أسواق مجاورة له سنة ٦٤٦هـ[٣]/ ١٢٤٩م، مما يُعد دليلا على نشاطه الحرفي في العصر الموحدي. وقد استمر نشاطه الحرفي بعد تجديد بناء الأسواق التي أُحرقت.

وقد شهد سوق الغمادين صنع أغمدة من مواد معدنية تم معها دمج مادتي

(١) المواسي هي السكاكين التي استعملت كأداة حربية حادة، وردت عند الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) الوزان: ج١، ص: ١٨٧، مارمول، ج٢، ص: ١٥٢.

(٣) ابن أبي زرع، علي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢ ص: ٧٣.

الخشب والعاج. لكن الوزان تحدث عن صناعة أغمدة جلدية مع مصنوعات جلدية أخرى تعد من توابع السروج بمركز المدينة شمال زقاق الشراطين [١]. ولعله هو الحي الذي لازال معروفا بالجوابين قريبا من سوق السقاطين الذي نشط في صنع وبيع السروج ولوازمها.

- التروس والـدرق:

إن كلمة الترس ترادف الدرقة، وتدل على أداة حربية صُنعت من الجلد، يلبسها المحارب بربطها على ظهره [٢] حتى تقيه مما قد يتعرض له من هجومات، قد يكون غافلا أوغير منتبه لها.

وكانت مادة الجلد التي صنعت منها التروس أو الدرق تتسم بجودتها، كانت تجلب إلى فاس من بلاد السودان، ومصدر هذا النوع من الجلد حيوان يسمى الضبي كان يعيش بمنطقة نول لمطة بالصحراء الإفريقية، لذلك عرف هذا النوع باللمطي [٣].

لقد مارس صناع الدرق اللمطية حرفتهم بالطريق الغربي الذي نشط في صناعة الأسلحة، حيث امتلكوا دكاكين تقع بين الإسكافيين (الطرافين) وغاسلو الثياب، يقابلهم صقالو الركابات وغيرها من المصنوعات الحديدية [٤]. واتَّصفت الدرق المصنوعة بالجميلة، كما ميزتها الخفة والصلابة، وبعضها ذو شكل مثمن [٥]، وبعضها

(١) الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ١١٤.

(٣) ناعمي، مصطفى: الدروق اللمطية، معلمة المغرب، م١٢، ٢٠٠٠، ص: ٤٠٢٦.

(٤) الوزان، ج١، ص: ١٨٨، مارمول، ج٢، ص: ١٥٣.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص ص: ٣٢٣-٣٢٤.

الآخر بيضوي أو دائري، تتكون من عدة طبقات يتم جمعها بطريقة متقنة [١].

واقتبس صناع الدرق الفاسية تقنيات صنعتهم مما كان يقوم به نظراؤهم في البلدان الإفريقية فصنعوها على طريقتهم [٢].

لقد ظهر تأثير صناعة الدرق اللمطية بفاس في بلاد الأندلس وأوربا، التي كانت تستقبل كميات من الدرق المصنوعة بالمغرب، وتصنع كميات أخرى على طريق صنع المغاربة لها[٣].

- السلاح الناري:

عرفت جهة باب السلسلة بالمدينة العتيقة صناعة أسلحة نارية من طرف عناصر أندلسية[٤]، من المفترض أنها نقلت تقنيات متطورة لهذه الصناعة من الأندلس، التي استفادت من الاحتكاك مع الأوربيين وأبرزت إبداعاتها وابتكاراتها في صنع هذا النوع من السلاح. ولازال أحد الأسواق بالجهة المذكورة -أي باب السلسلة- يعرف بالنيارين يوحي اسمه بصناعة نِيَر أو أَزْنِدَة[٥] البنادق أو المكحلات. والنير هو الجزء المهم في المكحلة، إذ يحصل بواسطته الضغط على الذخيرة سواء، كانت بارودا أو رصاصا لتخرج من فوهة البنادق أو المكحلات. ويرجح أن يكون حي النيارين

(١) ناعمي، مصطفى: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة.

(٣) نفسه؛ العلوي، عبد العزيز: علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني، كلية الآداب و ع إ، الدار البيضاء، عين الشق، أشغال ندوة، ج٢، ص: ٢٧٠.

(٤) الوزان، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول، ج٢، ص: ١٥٤.

(٥) النِّيَر جمع نِير، والأزندة جمع زِنَاد، لهما نفس المعنى، إذ يدلان على الأداة التي يضغط عليها حامل البندقية حتى تخرج منها الذخيرة.

قد احتضن صناعة الأجزاء الأخرى من المكحلات التي تتمثل في السرير والفوهات[١]. وهذه الأخيرة عبارة عن جعبات حديدية، أما السرير فهو الهيكل الخشبي للبندقية أو المكحلة يسمى المتخصص في صنعته بالسرايري[٢].

وكان الحرفيون الفاسيون على دراية أيضا بصناعة البارود، الذي توصل أحد الحكماء سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م إلى صنعه بطرق كيميائية بعد اشتقاقه من معدن الرصاص[٣]. والبارود عبارة عن مسحوق أسود، يستعمل معدن الملح أيضا في صنعته. وكلما تحولت الذخيرة إلى حبات أكبر، إلا ونعتت بالرصاص الذي كان شائع الاستعمال لدرجة أن الفقهاء جوزوا دفعه في الزكاة[٤].

وصناعة حبات الرصاص تطلبت صناعة بنادق ذات فوهات أكبر عرفت بالمدافع شاع أيضا استعمالها في الصيد[٥].

رغم هذه التطورات التي شهدتها صناعة الأسلحة النارية، والتي أبدع فيها الحرفيون الخواص، فإن مؤسسات الدولة والإمكانيات التي توفرت عليها جعلتها متميزة عن الصناعات الخاصة في تصنيع الأسلحة المتطورة ومنها النارية كما وكيفا.

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) زمامة، عبد القادر : أسماء الحرف المعروفة بفاس، مجلة اللسان العربي، ع٤، ص: ٩٩.

(٣) الفاسي، محمد بن عبد القادر: مجموع أوله شرح منظومة العمل؛ الفاسي، مخطوط ب: خ ع، رقم ١٤٤٧ د، ص ص: ١٠٥-١٠٦.

(٤) نفسه، ص: ١٠٥.

(٥) نفسه، ص ص: ١٠٥-١٠٦.

## المبحث الرابع

### الصناعات الشريفة

كانت بعض أصناف الصناعات مقدرة في أعين الناس، ومن الفروع التي تنتمي إليها هذه الأصناف الوراقة التي هي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد... وأمثال ذلك. ثم الطب الذي هو حفظ الصحة للإنسان، وتلحق بهذين الفرعين مجموعة من الحرف والصنائع التي نالت موضع الشرف أيضا، وذلك لتداخلها معها، أو قياسا على تشابه منزلتها معها عند عامة الناس وخاصتهم. لذلك تشمل الوراقة بدورها حرفا أخرى مثل صناعة الرق والورق وغيرها، كما تدخل حرفا أخرى في الطب مثل الصيدلة وجلب وإعداد العشوب، كما سيتم تناول حرف خارج فرعي الوراقة والطب ضمن الحرف الشريفة مثل الطبخ والعطارة وصناعة الشمع.

## المطلب الأول

## حرف الوراقة

صنف ابن خلدون الوراقة مع الحرف المعاشية غير الضرورية وعرفها بأنها «حافظة على الإنسان حاجته، ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني»[١]. ويحصل ما ذكر في هذا النص بممارسة حرف الوراقة التي أوجزها ابن خلدون أيضا في «الانتساخ والتصحيح والتسفير»[٢]. وأعمال الانتساخ والتصحيح تتم بتوفر الأرضيات التي تتم الكتابة عليها، وهي مواد توفرها صناعة الرق والورق، كما تتطلب أيضا صناعة الأقلام والمحابر والمداد ومجموعة من الأدوات والوسائل الأخرى. أما التسفير فهو صنعة تطلبت أنواعا من الجلد ومهارات حرفية تمكّن من ضم وتجميع الكتب والمؤلفات.

### ١ - صناعة الرق:

مثّل الرق أو الجلد أرضية للكتابة في العصر الوسيط، واستمرت صناعته لذلك الغرض إلى غاية القرن ١٣هـ/١٩م، إذ ظلت تكتب عليه الإجازات القرآنية والوثائق العدلية[٣]. وكانت للرقاقين العاملين في هذه الحرفة عدة دكاكين حول باب الجنائز من جامع القرويين[٤]، وممارستهم للصنعة بهذا المكان دليل على شرف

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٠؛ نفسه: المقدمة، ٤٠٠.

(٢) نفسه، العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٣) المنوني، محمد: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٠.

(٤) نفسه.

حرفتهم، وقد أتاح لهم هذا المكان قربهم من سوق بيع الجلد الذي يوفر المادة التي يشتغلون عليها، ومن سماط العدول[١] والمراكز العلمية التي ينشط بها زبناؤهم من موثقين وعلماء وطلبة. وبالإضافة إلى المهارات الحرفية استعمل الرقاقون أدوات حرفية مثل الآلات الحادة التي يقطع ويصقل بها الجلد، ووسائل قياس الأبعاد.

## ٢- صناعة الورق:

مثلت هذه الصناعة تطورا في الكتابة أو النساخة التي تحولت من الرق إلى الورق الذي كان يعرف أيضا بالكاغيد وصناعته لبت الطلبات التي تزايدت بفعل كثرة التآليف والكتابات. وقد شهدت فاس كغيرها من مدن العالم الإسلامي صناعة الورق، حيث كانت تعتبر مع مدينة سبتة أهم مراكز إنتاج هذه المادة قبل عصر بني مرين، فقد ضمت فاس الموحدية «أربعمائة حجر لعمل الكاغيد»[٢] كانت تتحرك هذه الأحجار بطاقة المياه فتمكّن من تحويل القطن والكتان إلى ورق وفق الطريقة الصينية التي انتقلت إلى العالم الإسلامي منذ القرن ٥هـ/ ١١م[٣]. وكان الناظم يوسف بن محمد بن النحوي المعروف بأبي الفضل القاطن بقلعة حماد ببلاد إفريقية، والزائر لمدينة فاس سنة ٥١٣هـ/ ١١٢٠م، عبَّر عن صناعة الورق في فاس بقوله واصفا المدينة[٤].

هذا نسميك أم روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي أو الورق

---

(١) أطلق السماط على الدكاكين التي كان العدول يحررون فيها الوثائق للناس، ووجدت حول جامع القرويين بجهته الجنوبية الغربية.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٣) هيل، دونالد: العلوم والهندسية في الحضارة الإسلامية، عالم المعرفة، ع ٣٠٥، ص: ١٥٠.

(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٥٢.

لذا فتقنيات صناعة الورق بالأحجار الطاحنة كانت شائعة بفاس استمرت إلى أوائل المائة التاسعة للهجرة. وقد صحب ازدهار صناعة الورق تصديره إلى إسبانيا نظرا لجودته وأهميته. كما انتقلت تقنيات صناعته إلى مصر على يد رجل عرف بعبد الله السوسي الذي كان هنالك يصنع ورقا جيدا وشفافا يكتب عليه بيده[1].

ومع تدهور الدولة المغربية منذ المرحلة الأخيرة من تاريخ الحكم المريني، وصعود نجم الدول الأوربية، أضحى الورق المغربي وضمنه الفاسي يتعرض لمنافسة حادة من الورق الأوربي، الذي شاع استعماله في المدن المغربية، وهو ما عبرت عنه النوازل الفقهية بإصدار حكم على استعمال الورق المصنوع من طرف الأوربيين في الكتابة بفعل التشكيك في طهارته.

تكاد تنعدم المعطيات الميدانية عن صناعة الورق بفاس، بحكم طول فترة التوقف التي عرفتها، مما ساهم في اندثار معالمها الكامنة أساسا في الأحجار الطاحنة. بيد أن بعض المصادر التاريخية تضمنت إشارة إلى حومة الكغادين التي كانت تقع بجهة باب الفتوح على مقبرة دفن بها فقهاء وعلماء ومتصوفة مثل عبد الرحمن الهزميري (ت٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م)، وعبد العزيز الورياغلي (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م) ومحمد بن غازي (ت٩١٩هـ/ ١٥١٤م) [2]. ويطرح ذلك استفسارا حول احتضان

---

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات-٢- ١٩٩١، ص ص: ٥٧-٥٨؛ حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني،مقال بمجلة كلية الآداب وع.إ،الرباط، ص: ١٣٥.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص ص: ٦٥-٦٦؛ ابن القاضي : درة الحجال، ج٢، ص: ١٤٧.

هذه الحومة لصناعة الكاغيد، وهو أمر غير وارد في فترة بني مرين-بني وطاس، ومشكوك فيه في الفترات السابقة لها بحكم ضعف النشاط الصناعي في هذه المنطقة المنتمية لعدوة الأندلس والتي لم تتوفر بها شبكة قوية من المياه يمكنها تحريك الأحجار التي تسهم في تصنيع الورق.

٣- التسفير:

هي حرفة تجليد المصاحف والكتب، وقد اعتبرها ابن خلدون الفرع الثالث من حرف الوراقة[١]، ومكنت هذه الحرفة من جمع أوراق المصحف أو الكتب بين دفتي الجلد، وزخرفته بالحرير والكتان والتذهيب وغير ذلك.

وعرفت حرفة التسفير بهذا الاسم في المغرب دون المشرق، وهي مشتقة من كلمة السِّفر الذي يدل على عدد من الأوراق المجتمعة تصل إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ ورقة وتضم جزءا من الكتاب أو كله أو عدة كتب مثل المجاميع التي اشتهرت بها خزانات فاس. إلا أن الأستاذ المنوني يربط التسفير أيضا بالسَّفر البعيد الذي يستلزم جمع الكتب وتجليدها تسهيلا لنقلها، حيث يجمع الكتاب الواحد عدة أجزاء[٢].

واعتمد المسفرون في حرفتهم على مواد تتكون من الجلد الذي يحصلون عليه من أسواق المدينة، حيث تعرض للبيع بعد معالجته من طرف الدباغين[٣]، ومن مواد أخرى مثل التي اعتمدت في الزخرفة. ويشرع المسفر في عمله بعد اختيار الجلد المناسب للتسفير، ثم ربطه بإحكام لكراريس الكتاب التي توضع بين دفتي الجلد

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٢) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٤.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤.

بعد تفصيله ومعالجته، ويحرص المسفر في عمله أن تكون أوراق الكتاب متساوية في الملزم، وبعد التجليد يشرع في زخرفة واجهة الكتاب بالتذهيب[١]. وأحيانا يصنع ربعات خشبية أو جلدية للمسفرات.

ولم تتوفر معلومات عن المكان الذي احتضن عمليات التسفير، لكن الأمر الوارد هو أن مركز عدوة القرويين ومحيط جامعها هو الذي كان مناسبا لذلك، بحكم القرب من جامع القرويين والمدارس التي كانت مراكز للإنتاج العلمي، لما تحتضنه من علماء وفقهاء وطلبة اشتغلت نخبة منهم بالتأليف، ولممارسة بعض الحرف الشبيهة بالتسفير هناك مثل صناعة أكياس النقود والمحافظ الجلدية وغيرها[٢].

وكان المسفر ملزما بتوفير الجلد والاشتغال عليه بالتزويق والخرم وغير ذلك، في حين يلتزم صاحب الكتاب أو الكتب بدفع أجرة مقابل ذلك[٣] بعد التعاقد بينهما قبل الشروع في العمل.

### ٤- صناعة وسائل وأدوات الكتابة:

يعتبر المداد مادة اعتمدت في الكتابة على الرق والورق، لذلك كانت الكتابة في حاجة إليه وإلى أدوات أخرى احتضنت فاس صناعتها مثل المحابر التي يفرغ فيها الحبر، والأقلام التي ترفعه منها ويخطط بها في الكتب، إضافة إلى المقلمات والمساطير وغيرها.

---

(١) جادة، محمد: التسفير، معلمة المغرب، م٧، ص ص: ٢٣٦٨-٢٣٦٩.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥؛ التازي، عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٨٩.

(٣) الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٥٤.

وقد تم تناول صناعة المداد أو الحبر في إطار الحرف المخزنية، والذي كانت تتعدد أنواعه حسب طبيعة المواد التي استخلص منها، كما تعددت ألوانه[١]. وهي نفس الطرق التي ميزت صناعة المداد لعامة الناس مع شيوع استعمال الأمِدَّة[٢] الأقل جودة والتي تكون في متناول المحتاجين إلى الكتابة بها.

أما المحابر التي يفرغ فيها المداد بقصد الكتابة، فصنعت معظمها من الخزف، وهو نوع كان في متناول فئة الطلبة والعلماء والفقهاء. وحملت المحابر زخارف أبرزتها إبداعات صانعي الخزف ، واستعمالها في الكتابة هو الذي تطلب مثل هذه الزخارف.

وإذا كانت معظم المحابر خزفية، فإن معظم الأقلام حولت من مادة القصب، وبعضها صنع من الخشب[٣]، تقنيات صنعها تتمثل في قطْع مادة الصنع وتهييئها إلى أن تصبح حاملة لرؤوس حادة، لها دور في حمل وتخطيط المداد، أما الأجزاء الأخرى من الأقلام تفيد في قبضها والتحكم فيها.

تمثلت الأدوات الأخرى للكتابة في المقلمات التي تودع فيها الأقلام، والمسطرات التي تعد موجهة في وضع الخطوط على الأوراق وغيرها. لكن مثل هذه الأدوات لم تكن شائعة الاستعمال إلا عند القليل من الذين خططوا الكتب والمؤلفات.

إن الشرف الذي جسدته حرف الوراقة هو مساهمتها في حركة التأليف وتوفير

---

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص ص: ٢٢٧-٢٣٠؛ نفسه: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٦٢.

(٢) الأمدة جمع مداد.

(٣) المنوني: أبحاث ممتازة، ص ص: ٢٢٣-٢٢٤.

المصاحف والكتب، كما تمثل الشرف أيضا في تموضع هذه الحرف بأماكن متميزة في مركز المدينة حول جامع القرويين.

## المطلب الثاني

## حرف التطبيب

حرص القائمون بها على دفع الأمراض عن الناس وحفظ صحتهم ووقايتها وقد مارس هذه الحرف الأطباء والصيادلة والعشابون وغيرهم، تكاملت أعمالهم بالشكل الذي لم يستغن طرف منهم عن الطرف الآخر. فكان الأطباء يشخصون الأمراض ويقدمون الوصفات، أما الصيادلة فيعدون الأدوية التي يصفها الأطباء للمرضى، في حين يوفر العشابون العشوب للناس وللصيادلة التي يحتاجونها في إعداد الوصفات.

ومثلت دكاكين بحي العطارين ودكاكين حي العشابين القريبة منها الأماكن التي عرفت ممارسة حرف التطبيب بفاس.

### ١ - الأطبـاء:

كانت مهمتهم هي تشخيص الأمراض وتقديم الوصفات للمصابين بها قصد معالجتهم. وقد تردد على الأطباء بفاس علية القوم في الوقت الذي كان فيه عامتهم يتلقون طبا شعبيا[١]، ويتداوى الذين في حالات صعبة بالمرافق التي كان يرعاها السلاطين تخصص لها أوقاف بغرض تقديم الخدمة الطبية لهم[٢].

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٠.

(٢) احتضن مستشفى الجذمى ومارستان سيدي فرج الخدمة الطبية بشكل مجاني برعاية من الدولة، وتم تناول ذلك في إطار الأنشطة التي أشرفت عليها مؤسسة الأوقاف في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث.

ولم يكن الأطباء الذين يعالجون المرضى من الناس ممارسين لمهنة الطب بمفردها، فعادة ما كانوا يقومون بعمل آخر موازي مثل العلم والفقه، كما قد يجمعون بين الطب والصيدلة أو بينه وبين بيع الأعشاب. إذ يمكن للشخص أن يتردد عليهم بأحد الأماكن التي تمارس بها هذه الأعمال أو حين الفراغ منها بمنزله، كما قد يتم استدعاؤهم -أي الأطباء- إلى منازل المرضى قصد تطبيبهم إن كانت وضعيتهم تفرض ذلك، أو كان مرضهم معجِّزا لتحركهم.

وقد تعددت تخصصات الأطباء منها معالجة أمراض العظام والمفاصل، التي تتم جبر العظام المكسورة وذلك بوضع الجبيرة على مكان الكسر، في حين كانت المفاصل تعالج إما بالكي أو الدلك أو غيره[١].

واختص بعض الأطباء في معالجة أمراض الجهاز الهضمي التي كانت تحصل نتيجة خلل في أعضائه المتمثلة في المعدة والأمعاء والكبد أو في بعضها أو أحدها. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة». والحمية هي الجوع الذي له دور مفيد في علاج أمراض الهضم، أما البردة فهي إدخال الطعام على الطعام قبل هضم الأول، والهضم هو طبخ الغذاء بأعضاء الجسم التي تكمن في الفم والمعدة والكبد وغيرها إلى أن يتحول الغذاء إلى جزء من الجسم وفضلات تخرج منه[٢]. لذلك نصح الأطباء المرضى باستعمال الحمية الغذائية، ووصفوا لهم أغذية يتناولونها بانتظام، وإذا استعصى العلاج بالحمية والأعشاب يلجؤون إلى طرق أخرى منها استعمال الأدوية والوصفات الطبية[٣].

---

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص: ٧٠؛ بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية، ص: ٩٨.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤١٥-٤١٧.

(٣) بنعبد الله: المرجع السابق، ص ص: ٩٩-١٠٠.

وعُرف الأطباء الذين تخصصوا في علاج أعراض العيون بالكحالين، إذ عالجوا حالات الرمد والدمعة، كما اعتمدوا على الجراحة لعلاج أمراض العيون المعقدة، أو الأشخاص الذين فقدوا البصر[١].

٢- الصيادلة:

كانت حرفتهم هي إعداد الأدوية وبيعها في دكاكينهم التي تواجدت بسوق العطارين.

وكان الصيادلة يهيئون وصفات عادية كان الناس يقبلون على استعمالها في الوقاية والعلاج، كما يتعاونون على إعداد الوصفات التي يقدمها الأطباء للمرضى.

وأصبح الصيادلة في نهاية العصر المريني يجمعون بين الصيدلة والطب أو بينها وبين إعداد وبيع العشوب[٢].

٣- العشابون:

حرفتهم جمع وجلب الأعشاب إلى المدينة وإعدادها واستخلاص وصفات منها للعلاج أو للوقاية من الأمراض.

وكانت للعشاب معرفة بالنباتات ومصادر جلبها. لذلك كان يقوم بشرائها من الأشخاص الذين ينقلونها إلى فاس من محيطها أو من مناطق بعيدة عنها، ولا يغنيه ذلك عن السفر إلى المناطق التي تتوفر على أنواع الأعشاب المطلوبة.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ٤٧٦؛ بنعبد الله: المرجع السابق، ص ص: ٧٣، ٩٩.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٠؛ المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٤.

وكانت عمليات إعداد الأعشاب تتم بالدور أو الدكاكين، ثم يتم عرضها بهذه الأخيرة، وكانت بعض أنواع العشوب تحول إلى مساحيق بعد دقها وطحنها.

ويُقَدم العشاب وصفات العشوب للأشخاص المتوافدين عليه بطلبهم لها منه، أو بوصفها لهم من قبله أو من قبل الأطباء مع توضيح طريقة إعدادها واستعمالها.

لقد اجتمعت دكاكين العشابين في سوق خاص بهم يقع شمال ساحة الحمالين، وكانت هذه الساحة تتموضع في حي النجارين الحالي. ويَحُدُّ العشابين من الجنوب سوق الجزارين ومن الشمال سوق الدخان. وكان حي العشابين محاطا بسور تباع به أيضا الخضر، بلغ عدد دكاكينه أربعين[1]، وهو السوق الحالي المعروف بالجوطية.

تراجعت حرف التطبيب في نهاية الفترة المرينية وفي مرحلة حكم الوطاسيين. وقد حاول الممارسون لها مسايرة هذه التطورات بالجمع بين أكثر من تخصص مثلما ما حدث للصيادلة الذين أصبح بعضهم يمارس حرفة العشابين، والأمر نفسه بالنسبة للتخصصات الأخرى.

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٦؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٥١-١٥٢.

## المطلب الثالث

## الحرف الشريفة الأخرى

تبرز منها حرفتا العطارين والشماعين، اللتان اشتهرتا بسوقين من أفضل الأسواق رواجا وإقبالا عليهما بفاس، كلاهما احتل موقعا متميزا بقربه من مركز المدينة الذي مثله جامع القرويين وبكثرة العابرين له باحتلاله شارعا رئيسيا.

وتلحق بهاتين الحرفتين حرفة الطباخين الذين نالوا الشرف بتقريبهم من طرف خاصة المدينة بغرض إعداد الأطعمة الفاخرة لهم.

### ١ - العطارة:

مارس العطارون صنع وبيع العطور. وقد تم تعريف العطار في المصادر الإسلامية باسم الداري، فقد روى القضاعي في الشهاب عن رسول الله ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يجدك من عطره علقك من ريحه»، وذكر الثعالبي في كتاب «التمثيل والمحاضرة» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لو كنتُ تاجرا ما اخترْت على العطر شيئا»[1]. وفي الحديث والأثر السابقين إشارات إلى أهمية حرفة العطارة سواء من حيث نبلها أو مردوديتها، وهي الصفات التي نعت بها عطارو فاس[2].

وقد تمثلت مهمة العطار في صنع عطور تستعمل بعضها النساء في التجميل،

---

(١) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٠٤.

(٢) Massigon : Le Maroc, P : 233.

واللواتي كن تترددن على دكاكين العطارين، والبعض الآخر تُطَيب به الأماكن وعامة الناس.

وضمت مدينة فاس سوقين للعطارين الأول بعدوة القرويين، وهو سوق كبير بلغت دكاكينه مائة وسبعين دكانا وسط العدوة يمتد من مدرسة العطارين شرقا إلى عقبة الجزارين غربا[١]. والثاني بعدوة الأندلس وهو أقل كبرا وأهمية من الأول إذ لم تتعد دكاكينه الثلاثين، وجد بمنطقة جرواوة شرق الكدان وشمال باب الفتوح وحي الفخارين، وكان هذا الحي (العطارين) قائما ونشيطا في القرن ١٠هـ/ ١٦م[٢]، لكنه اندثر بعد ذلك بفعل تراجع نشاطه، وما تعرضت له المدينة من أعمال تخريب، عكس حي العطارين بعدوة القرويين الذي كانت الدولة تولي له أهمية خاصة، إذ تم تجديده بعد ما تعرض لحريق.

لقد سوقت بالعطارين مواد توفرت بالبيئة المحلية أو جلبت من الأصقاع البعيدة وخاصة بلاد المشرق الإسلامي والهند. وأهم العطور المسوقة هناك هي : المسك والعنبر الرمادي، والعقيق الذي يصنعه اللبار والورد الأحمر والقرنفل وتاسرغينت والشب بأنواعه. وقد أقبل السكان المحليون والمتوافدون على المدينة على اقتناء هذه العطور، كما حملها التجار إلى مناطق خارج فاس مثل بلاد السودان[٣].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣؛ المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ١٤١؛ Massignon: Enquête sur les corporations de Fès, PP: 194-195

(٢) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ Massigon : Le Maroc, P : 234

(٣) زمامة، عبد القادر: من مساجد فاس، مسجد اللبارين، مجلة البحث العلمي، ع٤١، ١٩٩٣، ص ص: ٣٧-٣٨؛ حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧؛ ص: ٢٢٧٤؛ Massignon: Le Maroc, P: 104

٢- صناعة الشمع:

اختص فيها الشماعون ، وكان الشمع المصنوع من قبلهم يستعمل في الإنارة وله رمزية باستخدامه في الحفلات والمناسبات الدينية والدنيوية كالمواسم والأعراس.

ومارس الشماعون حرفتهم في زقاق رئيسي عرف باسمهم، يمتد من الباب الغربي لجامع القرويين الذي يعرف أيضا باب الشماعين إلى أن يصل إلى زقاق الشراطين، كان يضم مصانع للشمع[١].

وتقنيات السبك هي أهم ما ميز تصنيع الشمع[٢]، وشهد النحل أهم مصدر لصناعته. إذ يصفى، ثم يتم تذويبه وإفراغه في الإطارات الخاصة به، ثم يخرج منها بعد تصلبه في أحجام وأشكال متعددة. تحتوي كل شمعة على فتيلة توقد النار فيها وتمثل المادة البيضاء وقودها.

وقد كان الشماعون يعرضون الشموع الجميلة التي يصنعونها بدكاكينهم هناك. لكن زقاقهم احتوى أيضا على دكاكين بيعت فيها الفواكه[٣]، وهو الأمر الذي لازال ساريا، وعلى فندق احتضن نشاطا ماليا تابعا للدولة [٤]، واستمر ذلك النشاط إلى أن خرب هذا الفندق نتيجة ما تعرض له من حرائق في فترات متأخرة عن الفترة المدروسة.

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٢٣.

(٣) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة، مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٠.

(٤) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص ص: ٢٣٢-٢٣٣.

ووصفت حرفة الشماعين بأنها نبيلة [١] ونظرا لكون قسم من منتوجها كان موجها للمعالم الدينية والعلمية، إذ أضيئت به المساجد والمدارس وغيرها، كما أن موقع هذه الحرفة كان قريبا من أهم معلمة دينية وعلمية بالمدينة، علاوة على المردود التجاري الذي كان يحققه المحترفون بها.

٣- الطبخ:

احترف بعض العاملين بطبخ الأطعمة لفائدة الخاصة من القوم. وعادة ما نشطت هذه الحرفة في أوقات المناسبات والاحتفالات، كان الطباخون يقومون فيها بإعداد الأطعمة. كما شهدت بعض الدور الكبرى بفاس استقرار طباخين بها بصفة دائمة يهيئون ما يحتاجه أهلها من مأكولات.

وكانت الوجبات الدسمة أهم ما يهيئه هؤلاء الطباخين، وتكون اللحوم والأسماك والدجاج والطيور والبيض مواد أساسية لإعدادها بالطبخ أو الشي أو القلي. ومن أهم وصفات لحوم الضأن والبقر التي كان خاصة القوم يتناولونها يوميا البرانية، المروزية، الكرونبية، اللفتية، البسباسية [٢]... ، ويلاحظ أن أسماء بعضها مشتقة من أنواع الخضر التي تدخل في طبخها، ولازالت بعض هذه الوصفات معروفة لدى أهل فاس وغيرهم. كما هيأ الطباخون أيضا القديد من لحم العيد، وأعدوا الخليع من لحم البقر عن طريق طبخه مع الأدم (الزيت والسمن). ودخلت الأكارع وسقط رؤوس المواشي أيضا في إعداد الأطعمة [٣]، إذ هيئت بواسطتها

(١) ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) Abderrahim Benhadda, Laïla Benkirane : Nourriture, Fès Médiévale, entre légende et histoire, un carrefour de l'Orient à l'apogé d'un rêve, série mémoires, éditions autrement, n° 13, Paris, 1992 P: 160. ؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٣) نشاط، مصطفى: التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مجلة أمل، ع١٧، ١٩٩٩، ص: ٨.

أطباق داخل المنازل.

عبرت الحرف والصنائع الكمالية المركبة بتعدد حرفها وأصنافها، والمواد والتقنيات التي حُولت بواسطتها، والتوزيع الجغرافي لها على مجال المدينة، عن الإمكانيات المتوفرة آنذاك لدى أهل فاس المقبلين على ما تنتجه وتقدمه، ولدى التجار، سواء كانوا أجانب أو محليين، في نقلها وتسويقها بمناطق ومدن مختلفة. وكان الانعكاس الاقتصادي والاجتماعي أكثر بروزا وفعالية عندما تكون الدولة متحكمة في كيانها ومحافظة على الاستقرار، خاصة وأن المصنوعات التي لها طلب كمالي ومركب استدعت توفر مثل هذه الشروط كي تزدهر وتنتعش مادامت آفاقها مرتبطة بشكل أوثق مع الأسواق الخارجية القريبة من فاس والبعيدة عنها.